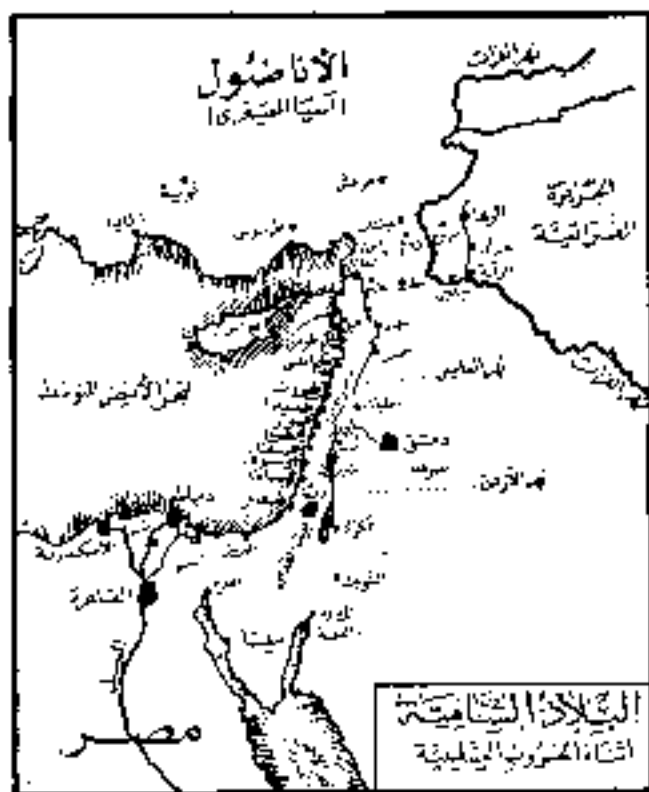


عبد الشين عبد الرحمن الربيعي

أشرف الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية



الربيعي

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

100

100

أهدى هذه النسخة إلى الأستاذة
الدكتورة / اسمت عظيم
رمز تقدير

المؤلف
ربيع ١٤١٨ هـ
نوفمبر ١٩٩٧ م

الأستاذة الدكتورة
اسمت عظيم

أشرف
الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي
خلال
الحروب الصليبية



اهداءات ٢٠٠٦

!د. أسامة محمود الخزي

استاذ التاريخ وأستاذ الإسكندرية

عبد الشين عبد الرحمن الزبيعي

الأستاذة الدكتورة
البحرسة هنيتم

أش
الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي
خلال
الحروب الصليبية



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

المكتبة الإسكندرية (Library of the Alexandria General Council) / Bibliotheca Alexandrina

المكتبة العامة الإسكندرية

الزبياض

رقم التسجيل: ١٩٩٥

١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م

رقم التسجيل: ١٩٩٥

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ولا يجوز طبع هذا الكتاب، أو جزء منه، ولا تصويره، ولا نقله على أية هيئة، أو
بأية وسيلة: إلكترونية كانت أم شرائط ممغنطة، أو غير ذلك، إلا بإذن خطي موقع
من المؤلف ذاته، ويمكن مراسلته على العنوان البريدي:

ص.ب 3169 الرياض 11471

هذا الكتاب أصله رسالة ماجستير

نال الباحث بموجبها درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتقدير «ممتاز» من قسم
التاريخ والحضارة في كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الإمام - بالرياض
وذلك في شهر ربيع الأول من عام 1405هـ

تقديم

أحمد الله ربي ، وأصلي على محمد نبيي ، وعلى آله
أنطاهرين ، وصحابه الأبرار ، والتابعين إلى يوم الدين ، وبعد :

ماذا عساي أن أقول ، وأنا أقدم عملاً من ذاتي ؟ هل أكتب
بنرجسية ، أمجد الشخصية ، أم أتخيل أنني بهذا الكتاب أتيت بما
لم تستطعه الأوائل ؟ ، تعودت أن أكتب مقدمات لغيري ، ولكن
أن أقدم نفسي بنفسي فهذا أمر يحول بيني وبينه الحياء . رسالة
ماجستير توفقت ، وحصلت بموجبها على درجة ، ثم أودعت مع
غيرها من الرسائل السابقة واللاحقة في أرفف التحنيط ،
فأحسست بمقدرة الذنب ، وأنا أرى وأد رسالة حية ، أمدتني
بمائدة ، فأردت أن أنفض عنها غبار النسيان ، وأزفها إلى القارئ
المستفيد ، في ثوبها الجديد ، علَّه يجد فيها ضالته .

البحث له ثلاثة أركان : الموضوع والباحث والمشرف ، أما
الموضوع فهو عن الصليبيين ، وهم قضية شغلت بالي منذ أن كنت
في السنة الثالثة من سني الكلية ، حيث كتبت بحثاً عن « بواغث
الحروب الصليبية » ، لذلك أصرت على تسجيل هذه الرسالة
رغم تحفظات مالبت أن زالت بعد عرض المشروع ، ولا شك أن
وراء ذلك تشجيعاً علمياً أمدني به دائماً أستاذي الدكتور / عبد الله

ابن يوسف الشبل، وكيل الجامعة، هذا الرجل ذو الطراز الفريد، الذي بقي على صلة وثيقة بالبحث رغم مسؤولياته الجسام، حجة في التاريخ، وعائلاً في الحديث، ومحيطاً بالثقافة. أما المشرف فهو الأستاذ الدكتور/ علي الغمراوي رحمه الله، الذي كان أستاذ انحصور الوسطى في عين شمس والكويت وجامعة الإمام، خريج ألمانيا، يتقن الألمانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية، كان مخلصاً، متميزاً، لا يجامل على حساب الحقيقة العلمية، له أسلوب وحيد في الإشراف فهو لا يتعامل مع الورق ويشترط على الباحث أن يأتي إليه في بيته ويقرأ عليه ما كتبه، مما أرهقه وأرهق طلابه، ولكن لا يبدل عن ذلك. كان - رحمه الله - قاسياً ولكن بنية الخبير، والمصلحة العمل، كريماً لا يمن بكتاب، ولا يضمن بترجمة. اختلفت معه كثيراً لأن حكمة الشيوخ لم يبلغها بعد، أتذكر ذلك وأنا أعاني الآن مثلما عاني، فأنرحم عليه. كم كان محباً لهذا الوطن، قضى فيه اثني عشر عاماً في الرياض والأحساء وأبها والمدينة. كان لا يميل إلى الإسهاب والإطناب، بل يحبذ الإيجاز غير المخل، لذا استبعد كثيراً من المادة العلمية، لأنه يرى أن لا داعي لها، أو أنها تحصيل حاصل، أو حشو. هذه التوافيق كان - رحمه الله - يرسمها بالأحمر على أوراقه، حتى إذا ما اكتملت الرسالة، الزمنى بتقليد علمي معقد، من طباعة الرسالة إلى إخراجها ثم تسليمها بدأ بيد إلى لجنة المناقشة المكونة من: الأستاذ الدكتور/ علي حسني الخربوطلي، والدكتور/ محمود

الخبوري . فلا يجوز - في عرف الفمراوي - إرسال نسخ المباحثين في البريد . بل إنه اشترك معهما في إبداء ملحوظاته حول البحث والباحث .

وبعد مناقشة أشار عليّ عدد من الأساتذة بطباعة الرسالة ، ونهيات لذلك ، نولا سفري إلى فرنسا لتحضير الدكتوراه (من 26 مارس 1985 إلى 2 أكتوبر 1989) ، فتوقف المشروع إلى حين عودتي ، وفي العام الماضي زار الرياض الأستاذ/ محمود الأرتاوط مدير مكتب ابن عساكر لتحقيق وتصحيح كتب التراث بدمشق ، فطلبت منه أن يشرف على طباعتها في بيروت فقام بذلك مشكوراً ، وحين أرسل لي « التجربة الأولى » ارتأيت أن أزيد وأنقص ، وأضيف ، وأحذف ، بغية استدراك ما يجب إثباته أو نفيه ، وبخاصة أن وجودي في فرنسا مكثني من الاطلاع الواسع على أمور كثيرة كنت أجهلها عن الصينيين ، ولا أدعي بأنني مقتنع تماماً بما فمت به من تصحيح ؛ ذلك لأن الوقت لم يكن في صالحني ، ولعلي أجد - فيما بعد - فرصة لإعادة طباعة هذا الكتاب مع ترجمة وطباعة رسالة الدكتوراه التي أعدتها في جامعة السوربون ، لكي أساهم في تزويد المتخصصين في هذا العصر بما اعتقده مهما لديهم .

ولا أقول إلا كما قال العماد الأصفهاني « [نبي رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده : نو غير هذا لكان

أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل،
ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على
استيلاء النقص على جملة البشر».

ويسرني في هذا التقديم أن أشكر مسؤولي جامعة الإمام، منذ
تأسيسها حتى الآن، وعمداء كلية العلوم الاجتماعية منذ تكويتها
إلى اليوم، وأعضاء هيئة التدريس، في قسم التاريخ والحضارة،
على ما قدموا لي شخصياً، وقدموا لغيري من الباحثين من عون
وتوجيه وإرشاد، كما أنني على لجنة المناقشة، وهم أساندة
استفدت من ملحوظاتهم، أشكر الأحياء، وأترحم على الأموات
سائلاً الله أن يتغمدهم برحمته الواسعة. وأدعو الله أن يسكن
أستاذي المشرف جنته، ويجزيه عنا خير الجزاء.

د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي

الرياض / الروابي في 4/4/1414هـ

* * *

المقدمة

الحمد لله الذي علّم الإنسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام
على رسول الله هادي البشرية وناصر الأمة ، وعلى آله وصحبه
ومن والاه .

لقد كنت أميل دائماً إلى التبحر في الحضارية لأن الحضارة
سجلٌ حافلٌ يعطاء الإنسان عبر الأزمان ، سواء كان هذا العطاء
مادياً أو فكرياً . فالحضارة قضية تهتم كل إنسان في كل مكان .
والدراسة الحضارية متعة ثقافية تضيف إلى رصيد الباحث
معلومات جديدة ، وتثري المكتبات العامة بمناهل علمية يرد عليها
طلاب العلم . والبحث الحضاري محاولة جادة لإعادة الحلقات
المفقودة إلى سلسلة الدراسات الحضارية ، ورصد دقيق لقنوات
التأثر الحضاري بين الشرق والغرب ، والقديم والحديث .
فالتواصل مستمر إلى الأبد .

والحضارات الحديثة ماهي إلا نتيجة لتفاعل الحضارات
القديمة . والذي أود أن أؤكد هنا أن الحضارة ليست علماً
محصوراً في مصطلح بل هي تعني ما توصل إليه الإنسان من إبداع
أو اختراع في الآداب والعلوم ، فهي أمر يهم الطيب الذي يريد أن
يعرف بدايات الطب بواسطة التراث الطبي ، وكذلك يهم

المهندس وعالم الرياضيات لأن التراث العلمي محتو على
ماتوصل إليه المسلمون من أفكار وابتكار.

وقبل اختباري لهذا الموضوع قرأت في المصادر والمراجع التي
تحدثت عن فترة العصور الوسطى . هذه الفترة التي شهدت
علاقات مختلفة بين الشرق والغرب ، ورأيت أن الحروب
الصليبية حدث كبير استحوذ على اهتمام المؤرخين الغربيين
والشرفيين ، فقد اختلفت هذه الحروب عن غيرها من الحروب
بطول أمدها ، وتعدد عناصرها ، وتنافس أهدافها ، وتنوع لغات
الضالعين فيها ، ومكنت الصليبيين من البقاء في الشرق مدة
طويلة ، وقد أسفر الوجود الصليبي عن قيام قنوات حضارية
حملت الأثر الشرقي إلى أوروبا سواء كان هذا الأثر مادياً أو
فكرياً .

وقد اقتصر على الأثر الفكري فقط لأن الأثر المادي المتمثل
في الفنون المعمارية ، والفنون العسكرية ، قد كُتب حوله الكثير ،
ولم يكن مثار اختلاف بين المؤرخين أما الأثر الفكري فقد اختلفت
حوله الآراء فمن المؤرخين من أنكره جملة وتفصيلاً ، ومنهم من
قلل من شأنه . وقليل أكدوه وعظموا من قدره . لذلك رغبت في
أن أكتب عن هذا الجانب لعلني أن أخرج بنتائج طيبة . فقامت
بالاطلاع على مصادر ومراجع ساعدتني على تكوين فكرة عامة
مكنتني من إعداد خطة أولية حظيت بتأييد المتخصصين .

لقد اعتمدت في كتابة هذه الرسالة على مصادر إسلامية ألفها معاصرون للحقبة الصليبية مثل أسامة بن منقذ الذي كان شاهداً عياناً لكثير من الأحداث بين الصليبيين والمسلمين، ومنهم من وافق قادة المسلمين في قتالهم ضد العدو الصليبي مثل ابن شدّاد. واستفدت من كتب الرحالة، كابن جبّير الذي قدم إلى الشام في أواخر القرن السادس الهجري وتحدث في رحلته عن علاقة الصليبيين بالمسلمين.

أما المصادر الإفرنجية فلم أجد مترجماً منها غير كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» لمؤلف مجهول صحب الحملة الصليبية الأولى، وكتاب «القديس» لويس التاسع في حملته على مصر والشام» لجان دي جوانقبيل الذي رافق الملك لويس التاسع في حملته على مصر، ورحلة بنيامين التيطلي الذي زار الشام في القرن السادس الهجري. أما كتاب «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحر» لوليم الصوري فلم أجد مترجماً منه سوى مقدمته التي ترجمتها عمر كمان نوفيق في مقالة له بعنوان «المؤرخ ولیم الصوري» في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية^(*).

(*) قام الأستاذ الدكتور حسن حيشي بإصدار جزءين من هذا الكتاب تحت عنوان: «الحروب الصليبية» تأليف ولیم الصوري. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1991م.

أما المراجع العربية فقد اطلعت على عدد منها وبخاصة تلك التي ألفها علماء متخصصون في تاريخ العصور الوسطى بعامة والحروب الصليبية بخاصة أمثال سعيد عبد الفتاح عاشور، وجمال الدين الشيبان، وجوزيف نسيم يوسف. وقد وجدت في هذه المراجع مادة علمية ساعدتني في كتابة الرسالة وتعرفت من خلالها على مصادر رجع إليها هؤلاء المؤلفون.

وكان من حسن حظي أن أجد كثيراً من الكتب المترجمة إلى العربية التي تتصل بموضوعي وهي كتب إنجليزية وفرنسية وألمانية مكنتني من الاطلاع على وجهات النظر المتصفة وغير المتصفة، الأمر الذي مكنتني بالإضافة إلى المصادر الإسلامية أن أضفي على بحثي هذا لمسات من الموضوعية. ولم يكن يوسعي الرجوع إلى المراجع الأجنبية في لغاتها الأصلية إلا في القليل، وهي في رسالتي أربعة كتب رجعت إليها بمساعدة أستاذي المشرف : «معجم الكنيمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية» الذي ألفه بالفرنسية دوزي وأنجلمان في طبعته الثانية المنقحة والمزودة التي نشرتها مكتبة لبنان في بيروت سنة 1947م.

«دائرة المعارف البريطانية» في طبعتها الحديثة التي ظهرت في سنة 1983م. والكتاب الذي ألفه غوستاف جروبر باللغة الألمانية بعنوان «نظرة عامة على الأدب اللاتيني منذ منتصف القرن السادس وإلى منتصف القرن الرابع عشر»، المنشور في

ميونيخ في دار نشر فيلهلم فينك ، والمستخرج من مجمل
الفيلولوجيا الرومانسية ، الجزء الأول من المجلد الثاني الصادر في
شتراسبورج سنة 1902م ، وموجز تاريخ كمبريدج للعصور
الوسطى الذي صدر في مجلدين من مطبعة جامعة كمبريدج سنة
1966م .

وفضلاً عن ذلك فهناك محاضرات أفادتني بمعلومات قيمة ،
كالمحاضرة التي ألقاها فاسم السامرائي بكلية الشريعة بجامعة
الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام 1402هـ ، بعنوان «أصول
المسوية التاريخية وموقفها من الإسلام» . والمحاضرة التي ألقاها
الدكتور علي العمراوي في الكلية نفسها عام 1403هـ بعنوان «أثر
الثقافة الإسلامية في الفكر الأوروبي» .

واستفدت أيضاً من الرسالة المقدمة من قبل محمود محمد
علي الحويري إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام 1978م ، التي
نال بها درجة الدكتوراة وموضوعها «الأوضاع الحضارية في بلاد
الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر» .

وبعد أن توافرت لدي المعلومات التي رأيت أنها كافية لتغطية
موضوعي توكلت على الله وقسمته إلى أربعة فصول :

الفصل الأول ، وعنوانه الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي . تحدثت فيه عن الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى القيام بهذه الحروب . وناقشت الآراء حول دواعيها . لأن دراسة هذه الأسباب تصور الظروف التي أدت إلى مجيء الصليبيين إلى الشرق مما يوضح الملاحظات التي أحاطت بذلك ، ومن خلال هذه الدراسة نتعرف ضمناً على عقلية الصليبيين ، فالجيوش الصليبية لم تكن جنوداً فحسب بل كان فيها رجال الكنيسة الذين يتطلعون إلى الهيمنة على الكنائس الشرقية ونوسيع رقعة الإقطاع الكنسي . وكان فيها الأمراء والنُبلاء الذين يطمحون إلى إمارات في الشرق ، تشبع طموحهم . وهناك الفلاحون والفقراء وطلاب الحرية . وهؤلاء جميعاً بقوا في الشرق مدة طويلة وتأثروا بحضارة الشرق كل حسب مستواه العلمي والاجتماعي .

وفي هذا الفصل ناقشت أيضاً الآراء التي أثّرت حول دور الشرق في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا . ثم استعرضت أمثلة تؤكد أهمية الشرق الإسلامي كمعبر حضاري .

الفصل الثاني ، وعنوانه الأثر اللغوي والأدبي ، وفيه ألقى بعض الأضواء على علاقة الصليبيين بالمسلمين ، وعن طريق هذه العلاقة تسربت الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية ، بواسطة الصليبيين الذين تعلموا اللغة العربية الفصحى والدارجة . وضربت أمثلة من هذه الكلمات .

وفي الأثر الأدبي تناولت الشعر الأوروبي، وتأثره بالشعر العربي وبخاصة في فنُّ الهجاء، وفنُّ الغزل. وتحدثت عن التروبادور والجليارديين، وحاولت أن أبين الآثار الشرقية عليهم. أما القصة الأوروبية فقد أوضحت أثر الشرق فيها قدر الإمكان. وفي الجزء الأخير من هذا الفصل تكلمت عن المؤرخين الفرنجة والإنجليز والألمان والإيطاليين الذين رافقوا الحملات الصليبية. وكذلك المؤرخين الصليبيين كوليم الصوري، ووليم المطرابلسي، وتعرضت لأثر الشرق على المؤرخين الأوروبيين. ولتوضيح ذلك استعرضت كتاب المؤلف المجهول الذي صحب الحملة الأولى، وكتاب وليم الصوري الذي وُعد وعاش في الشرق.

الفصل الثالث، وعنوانه: الأثر العلمي والطبي. وقد حاولت قدر الإمكان أن أتوصل إلى أمثلة من الأثر العلمي للشرق الإسلامي سواء عن طريق الصليبيين العائدين إلى أوروبا، أو بواسطة صقلية أيام فريدريك الثاني.

ولما كان الأثر في مجال العلم قليلاً إذا ما قيس بالآثار الأخرى فلم أتمكن من الإطالة فيه لقلّة ماتوافر لدي من معلومات أما الأثر في مجال الطب فهو أمر له أهميته ولذلك أطلت الحديث عن المستوى الطبي لدى المسلمين بما في ذلك المشافي والأطباء وطرق

العلاج ثم قارنته بالمستوى الطبي عند الصليبيين . وتحدثت عن انتقال الأثر الطبي إلى أوروبا عبر الأطباء الذين رافقوا الحملات الصليبية أو عن طريق طلاب الطب الذين قدموا إلى المشرق لتلقي العلم على أيدي المسلمين . هذا الأثر الذي تمثل في ظهور المنشأ في أوروبا، وأدى إلى تطور الطب فيها، وفي آخر الفصل استعرضت أحد الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية وهو كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي . لأن لهذا الكتاب أثره الكبير في أوروبا .

الفصل الرابع، وعنوانه الأثر العقدي . وفي هذا الفصل تحدثت عن موقف الصليبيين من الإسلام والمسلمين ، هذا الموقف الذي لم يلبث أن تغيرَ بمرور الزمن . وتطرفت إلى موضوع مؤثرات المشرق على عقيدة الصليبيين سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية . ثم تكلمت عن المذاهب الجديدة التي ظهرت في أوروبا في عصر الحروب الصليبية وموقف الكنيسة منها، هذا الموقف الذي جعل البابوية تفكر في أسلوب جديد غير الحرب، وهو إرسال الوعاظ إلى الجماعات الأوروبية الخارجة على الكنيسة، وبعث المتصنين لتحويل المسلمين إلى النصرانية .

لقد كانت السمة الغالبة في كتابتي الإيجاز، فقد كنت أختار العبارات المختصرة التي تدلُّ على معانٍ كثيرة لأن القارئ بالإشارة

يفهم . ولأن الحشو من عيوب الكتابة ، وبخاصة إذا كان لا يمتُّ إلى الموضوع بصلة ، واتخذت من المعلومات التي استقيتها من المصادر والمراجع منطلقاً لإلقاء المزيد من الأضواء ، وأبدت بعض الآراء المتواضعة . ولما كان المتن باللغة العربية ، فإنني تمحشبت فيه بإدخال المفردات والعبارات المكتوبة بالحروف اللاتينية وفضلتُ أن أوردتها في الحواشي .

أما التاريخ بالسنين فقد أوردت السنة الميلادية رقماً . أما السنة الهجرية فقد اتبعت طريقة السلف إذ بدأت بالرقم الصغير ثم الكبير كتابة ، وعمدت إلى حصر نقاط كل فصل في ورقة تسبق الفصل . وحاولت أن أعرف الأعلام الواردة قدر الإمكان مستعيناً بمعجم يافوت الحموي ، وكتاب الأعلام لنزركلي ، ودائرة المعارف الإسلامية والمبريطانية . وقد حرصت قدر استطاعتي أن ألتزم بالموضوعية في بحثي ، وأرجو أن أكون قد وفقت في محاولتي هذه .

وفي الختام لا يسعني إلا أن أشكر أستاذي المشرف الدكتور علي الخمرأوي على ما بذله من جهد وما أبداه من إرشادات وتعليمات كان لها أثر على جمع المادة وصياغة الرسالة .

كما أقدم شكري الجزيل لأعضاء اللجنة التي تولت مناقشة هذه الأطروحة على ملاحظاتهم القيمة المفيدة التي أغنت البحث وشدت من أزر صاحبه .

ويسرني أن أشكر كل من أعانني على إتمام هذه الرسالة وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الباحث

عبد الله بن عبد الرحمن الرُبَيْمي

الرياض / الروابي

1408 / 5 / 5

الفصل الأول



الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي

نقاط الفصل

- أهمية الحروب الصليبية - البابا أوربان - بطرس الناسك -
- رحلات الحج - رأي ابن الأثير - الكسيوس كومنين - الوضع
- الاقتصادي في أوروبا - الحروب مرحلة من مراحل الهجرة -
- أوضاع الفلاح - البحث عن الحرية - دور المدن الإيطالية - الشرق
- الإسلامي معبر حضاري - آراء المؤرخين - أمثلة للعلاقات السلمية
- بين الصليبيين والمسلمين - فرسيه دي شارتر .

شهد الشرق الإسلامي في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حملات جاءت من الغرب الأوروبي، وقد اشتهرت دون سواها من الحملات التي شنتها البيزنطيون والأوروبيون الغربيون على المسلمين بالحروب الصليبية، هذا على الرغم من أن جميع هذه الحملات كانت حروباً يمكن أن نسميها بالحروب الصليبية، لأنها تمّت تحت شعار الصليب وفي أغلب الأحيان بمساعدة الكنيسة، فقد اختلفت الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي عن غيرها في أنها دارت على أراضٍ يقدّسها اليهود والنصارى والمسلمون، وعلى مدى زمني يقرب من قرنين كانت فترات السلم خلاله أطول من فترات الحرب وصاحبها قدرٌ من التعايش بين المسلمين والصليبيين، فضلاً عن الأعداد الكبيرة التي اشتركت فيها من مختلف الجنسيات واللغات، وقد نتجت عن هذا القدر من التعايش بالضرورة تأثيرات شرقية على حياة الصليبيين المقيمين، وكان لها انعكاس على الحياة في الغرب الأوروبي في مختلف المجالات⁽¹⁾، لذلك استأثرت هذه الحروب الصليبية باهتمام المفكرين في كل من الغرب والشرق، وثارَت حولها الآراء والخلافات بين المؤرخين وبخاصة أسبابها، فهناك من المؤرخين من يُرجع هذه الحروب إلى أسباب دينية،

(1) زكي النقاش، العلاقات من 134-133.

ومنهم من يُرجعها إلى أسباب سياسية أو أسباب اجتماعية واقتصادية .

يرى بعض المؤرخين أن الحركة الصنيبية انطلاقة كبرى عن حركة الإحياء الديني التي ظهرت في الغرب الأوروبي في القرن العاشر الميلادي ، وبلغت أشدها في القرن الحادي عشر، وقد أدت هذه الحركة إلى نفوية مركز البابوية وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس⁽¹⁾ ، الأمر الذي جعل البابوية تطمح إلى السيطرة على العالم النصراني عن طريق ضم الكنيسة الشرقية واحتلال الأماكن المقدسة في فلسطين . ولذلك دأبت على دعوة الأوروبيين إلى شن حرب صليبية عنى المسلمين في الشرق . ففي عام (1001) دعا البابا سيلفستر الثاني⁽²⁾ إلى إنقاذ بيت المقدس ، وبالفعل سارت حملة إلى الشام ولكنها فشلت في مهمتها⁽³⁾ .

ولما قام الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة (سنة 1007 ميلادية) بهدم كنيسة القيامة في القدس ثارت البابوية وجنّدت طاقاتها لإنقاذ الكنيسة⁽⁴⁾ . وفي عام (1016) تمكّن البيازنة من طرد المسلمين من سردينيا بمساعدة البابا بنيدكت

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج 1 ص 22-23 .

(2) Sylvester (999-1003) .

(3) ول ديورانت ، قصة الحضارة ج 4 / 4 ص 14 .

(4) عبد العظيم رمضان ، الصراع بين العرب وأوروبا ، ص 347 .

الثامن⁽¹⁾ . وبمباركة البابا اسكندر الثاني⁽²⁾ دخل النورمان صقلية الإسلامية عام (1060) ويمكن أن نعتبر ذلك مقدمة للحروب الصليبية إذ أن أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى وهو بوهيموند⁽³⁾ كان من سلالة النورمان الذين استولوا على صقلية⁽⁴⁾ .

وفي عام (1074) دعا البابا جريجوري السابع⁽⁵⁾ المغرب الأوروبي إلى إرسال حملة كبيرة لاسترداد أسبانيا الصغرى من السلاجقة المسلمين، وكان البابا يهدف إلى ضم الكنيسة الشرقية تحت لواء كنيسة روما. والواقع أن جريجوري استطاع أن يجهز جيشاً كبيراً⁽⁶⁾ غير أن النزاع بينه وبين الإمبراطور الألماني هنريش (هنري) الرابع⁽⁷⁾ حال دون مسير ذلك الجيش⁽⁸⁾ .

وأخيراً تبنى الدعوة إلى الحروب الصليبية البابا أوربان

(1) Benedict VIII (1012-1024).

(2) Alexandre II (1061-1073).

(3) Bohémond (1057-1111).

(4) أرست باركر، الحروب الصليبية، ص 18.

(5) Grégoire VII (1073-1085).

(6) أرست باركر، الحروب الصليبية، ص 19.

(7) Heinrich (Henry) V (1073-1085).

(8) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا انعصور الوسطى، ج 1 ص 422.

الثاني⁽¹⁾ الذي يعتبر المسؤول الأول عن الترويج لحرب المسلمين في الشرق والتحريرض على إرسال الحملة الصليبية الأولى إلى الشام. وكانت الظروف مهيأة فسارع إلى عقد اجتماع مصغر في بياتشيزا⁽²⁾ في شهر مارس عام (1095) ولكنه أجل هذا المجلس نقلة عدد الحاضرين، وفضل أن يقوم بحملة دعائية في فرنسا، وفي الثامن عشر من نوفمبر عقد مجمع كلير مونت⁽³⁾ الشهير الذي استمر عشرة أيام وحضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة⁽⁴⁾.

لقد ألقى البابا أوربان الثاني خطاباً⁽⁵⁾ أثار فيه حماسة الجماهير، وأشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المهدق بأوروبا من جهة القسطنطينية. وأعلن أن النصارى في الشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة أصابها الدمار، وحث الحاضرين والأوروبيين عامة على الانتقام من المسلمين الذين أصبحت قوتهم تهدد أوروبا وهو يعني السلاجقة في آسيا الصغرى والشام. وأشاد في ثنايا كلامه بالدور الذي قام به

(1) Urbain II (108-1099).

(2) Piacenza في إيطاليا.

(3) Clennou-Ferrand في فرنسا.

(4) ون ديورات، قصة الحضارة، 4/4 ص 14.

(5) انظر نص هذا الخطاب في الملحق رقم 1.

شارلمان⁽¹⁾ في أسبانيا واعتبره مثلاً عظيماً في البطولة، وأهاب بالناس أن يتجنبوا الحروب الأهلية وأن يحوِّكوا قوتهم إلى محاربة الإسلام. وبعد أن انتهى البابا من خطابه صاح الخاضعون هاتفين لئنك إرادة الله⁽²⁾. ولأجن أن يشجع البابا الجموع على الاشتراك في الحرب وعدهم برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وإعفائهم من الضرائب، وحمايتهم من أي اعتداء عليهم، ورعاية الكنيسة لأسرهم⁽³⁾. ولذلك امتجاب كثير من الفرنجة وحملوا انصليبان على أكتافهم وساروا إلى الشرق⁽⁴⁾.

وكان من أكبر المحرضين على سير الحملة الصليبية الأولى أيضاً بطرس الناسك⁽⁵⁾ الذي كان قد سافر من قبل إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة. لقد زعم بطرس أنه رأى في منامه المسيح يأمره بمقابلة البابا أوربان الثاني وحثه على الدعوة لحرب صليبية في الشام⁽⁶⁾. وعلى الرغم من أن بطرس لم يشهد فيها ببندو مجمع كليرمونت فإنه لم يكن ينتهي عام (1095) حتى أخذ يدعو إلى اخرب الصليبية، وظنَّ الناس أن بطرس كان يعلمُ الغيب،

(1) Charlemagne (742-814).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة ج 4/4 ص 16.

(3) مكسيموس مونروند، من تاريخ الحرب المقدسة ج 1 ص 17.

(4) اللورخ المجهول، أعمال الفرنجة ص 18.

(5) Pierre l'Ermitte.

(6) جوزيف نيم يوسف، العرب والروم واللاتين ص 65.

وكان رجل العصور الوسطى يعتقد في قرب القيامة وضرورة الاستغفار، وانتاب الأوروبيين شعور عام بالندم والذنب نتيجة لما مارسوه من حياة بعيدة عن أجواء الأديرة والكنائس. وأقبلوا على إمكانية العبادة بتشدون التكفير عما اقترفوه من آثام⁽¹⁾. وإيحاء من هذا الشعور كثرت الأقوال بالرؤى والتنبؤات وأصبح من المألوف أن يدعى الفرد منهم رؤية المسيح بأمره بتحرير قبره في بيت المقدس كما يزعمون فيصدقه الناس لأن نفوسهم كانت مهتمة لقبول مثل هذه الادعاءات والخرافات. وفي هذا الجو المنسحق بالخوف والشعور بالندم ظهر بطرس الناسك⁽²⁾.

كان من تعاليم الكنيسة أنه يصح التكفير عن الذنب بتأدية الحج. ولذا أخذ مثلاً، فروغمون سيد بريتوني⁽³⁾، الذي كان قد قتل عمه وأخاه الأصغر، وأراد أن يكفر عن فعلته، فمثل أمام محكمة من القساوسة، الذين فرضوا عليه السفر إلى فلسطين حافي القدمين، عاري الجسد، كشرط إلزامي لقبول توبته. سافر فروغمون إلى القدس ثم اتجه إلى سيناء، فحصر، حتى إذا ما وصل تونس أبحر منها إلى روما، وقابل البابا الذي أمره بالعودة إلى فلسطين مرة أخرى، وهكذا عاد إلى هناك حيث مكث في سيناء

(1) ستيفن راسيمان، تاريخ الحروب الصليبية ج 1 ص 180-182.

(2) جوزيف نعيم يوسف، المرجع السابق، ص 64.

Frolinond de Bretagne (3)

ثلاث سنين، ثم قفل راجعاً إلى أوروبا عبر أرمينيا، فاستقبله قومه باعتبارهم قديساً⁽¹⁾.

وعندما أوشكت الألف الأولى على الانتهاء انتاب الناس في أوروبا شعور بدنو القيامة، فكثرت حملات الحج الغربي، وكانت الحملة الواحدة تضم أحياناً بضعة آلاف، يذكر لنا التاريخ أن جوتتر أسقف بامبير⁽²⁾، وسيغفريد رئيس أساقفة كولوني⁽³⁾، غادرا في نوفمبر عام 1064، إلى الشرق بحملة فوامها سبعة آلاف حاج وصلوا القدس في 12 أبريل سنة 1065 بعد معاناة من مخاطر الطريق، وغارات البدو، ومكثوا في القدس ثلاثة عشر يوماً، وفي طريق العودة مات الأسقف جوتتر، وتزعم الروايات الغربية أنه لم يعد إلى أوروبا من هؤلاء الحجاج سوى ألفين، والبقية قضوا في الطريق، أو بقوا في الشرق في الكنائس والأديرة، أو فقدوا في ظروف غامضة⁽⁴⁾.

هذه الحملات ذات الأعداد الكبيرة، دعت بعض المؤرخين إلى القول بأن الحملة الصليبية كانت استمراراً لحملات الحج الكبرى المألوفة لا يفرقها عن غيرها سوى كثرة العدد والعتاد⁽⁵⁾. ولكن

(1) BARRET, Si je l'oublie Jerusalem, p.42-43

Gunther de Dunhere (2)

Siegfried de Cologne (3)

BARRET, Op. Cit. p. 51-54 (4)

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ج 1 ص 22-24.

كيف لأحد أن يعتبر الخروب الصليبية في الشرق الإسلامي حملات حجّ كما قال أصحاب هذا الرأي، فالصليبيون جاؤوا بجيوش جرّارة تحت قيادات سياسية ودينية حملت معها من السلاح ما حملت، ومن المعروف أن حملات الحجّ تكون حملات سلمية لا يحمل فيها الحجاج معهم غير ما يدفع عنهم مخاطر الطريق.

وفيما يتعلق بالأسباب السياسية ترى ابن الأثير يقول: « فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا [الصليبيون] إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم يرذويل⁽¹⁾ جمع جمعاً كثيراً من الفرنج، وكان نسيب رجار⁽²⁾ القرنجي الذي منك صقلية. فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أنتحها. فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك وقالوا: وحقّ الإنجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانية. فرفع رجاره وحبّ حبة عظيمة وقال: وحقّ ديني هذه خير من كلامكم. قالوا: وكيف ذلك قال: إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من

(1) برديل هو بلدوين (Baudouin I) (1058 - توفي عام 1118).

(2) روجر كونت صقلية (Roger I) (1101-1062).

عندي أيضاً، فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤونة لهم من صقلية. وينقطع عني ما يصل من المال من ثمر الغلات كل سنة. وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وأذيت بهم. وأحضر رسوله وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. أما إفريقية فيني وبين أهلها أيمان وعهوده⁽¹⁾.

في هذا النص نجد ابن الأثير يحزو الغزو الصليبي إلى المفاوضات التي تمت بين بلدوين وبين رجار الأول كونت صقلية الذي رفض استقبال الجيوش الصليبية التي كان بلدوين ينوي التوجه بها إلى إفريقية. ويبدو أن رجار كان على يقين من أن هذه الجموع المتدفعة تشكل خطراً على أمن بلاده وبخاصة إذا فشل الصليبيون في احتلال إفريقية. وهو لا يريد أن يحمل بلاده مؤونة نقل الجنود من صقلية إلى الساحل الإفريقي وهو قبل كل شيء له مصالح اقتصادية وعلاقات ودية مع هذه البلاد المسلمة. لذلك رفض فكرة بلدوين ونصحه أن يوجه هذه القوات إلى الشرق⁽²⁾.

وهذا النص يكشف عن رغبة بلدوين في احتلال إفريقية، مما

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج 10 ص 272-273.

(2) لم أجد في المصادر الصليبية ما يعضد رواية ابن الأثير، ونوردها هنا على وجه الاحتمال فقط.

يؤكد أن الصليبيين لم يكن هدفهم من حروبهم في الشرق هدفاً دينياً فحسب فيها هو بلدوين أحد القادة الصليبيين يفاوض رجار على استعمار هذا الجزء من العالم الإسلامي لاستغلال خيراته . ولذلك ذهب بعض المؤرخين مثل كالفيرلي إلى اعتبار الحروب الصليبية في العالم مظهراً من مظاهر استرداد الأراضي من المسلمين⁽¹⁾ فقبل الحملة الصليبية الأولى استطاع النورمان احتلال صقلية الإسلامية ، كما تمكن ملوك النصارى في إسبانيا من استرداد الجزء الأعظم منها ، ثم اتجهت أنظار الأوروبيين إلى فلسطين⁽²⁾ .

وهناك مؤرخون اعتبروا النداءات البيزنطية سبباً للحركة الصليبية ، فقد كان وضع الإمبراطورية حرجاً من جراء توسع السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة «مانزك»⁽³⁾ سنة أربعة وستين وأربعمائة هجرية سنة (1070 ميلادية) التي انتصر فيها السلاجقة على الجيش البيزنطي مما حدا بالإمبراطور ميخائيل السابع⁽⁴⁾ أن يستجد بالبابا جريجوري السابع الذي كاتب الزعماء الأوروبيين وأوضح لهم خطورة القوة السلجوقية على أوروبا إلا

(1) أودين كالفيرلي ، «الدين الإسلامي» ص 166 .

(2) انظر روم لاندو «الإسلام والعرب» ص 123 .

(3) Manazgherd في إرمينا .

(4) Michael VII (1079-1071) .

أنهم لم يتحركوا لتُصرّة البيزنطيين⁽¹⁾ . وعندما تولى الكسيوس الأول كومنين⁽²⁾ حاول أن يوقف المدّ السلجوقي وطلب أكثر من مرة مساعدة أوروبا . ويقال إنه أرسل في حوالي عام (1088) رسالة إلى روبرت الأول أمير أراضي الفلاندر⁽³⁾ يستحثه فيها على إرسال النجدات إلى القسطنطينية لدفع خطر السلاجقة عنها . ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على الأراضي المقدسة . وضمن ما جاء في هذا الخطاب أن السلاجقة يقومون بقتل التصاري في آسيا الصغرى ، وأن على الأوروبيين أن يمددوا يد المساعدة العاجلة ليتقدوا القسطنطينية لما تحويه من آثار وكنوز وأن يعملوا على تحرير قبر المسيح (هكذا) وأن المسلمين في فلسطين يذبحون الأطفال والشباب داخل الكنائس ، واستولوا على كل المنطقة الممتدة من بيت المقدس إلى بلاد اليونان لذلك أستحلفك بحجة الله ، وباسم جميع المسيحيين الإغريق! أن تمد لنا ولهم يد العون» .

وأشار إلى المسارعة إلى إنقاذ القسطنطينية ، «فمن الأفضل أن

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر السابق ، ج 1 ص 422 .

(2) Alexius I Comnenus (1081-1118) .

(3) Robert I de Flandres (1071-1093) . ذهب على رأس جماعة من الحجاج إلى

القدس وفي طريق عودته عام 1090 دخل في خدمة الإمبراطور الكسيوس الأول

كومنين واشترك في الحرب ضد السلاجقة . انظر :

Encycl. Brit Micropaedia, vol. VII, P.610.

تكون في حوزتكم وليست في قبضة الأتراك ، لأن بها ألغن آثار
السبّد المسيح ، وفيها الذهب والفضة والأحجار الكريمة ،
والمنسوجات الحريرية⁽¹⁾ .

يعتقد بعض المؤرخين في صحّة هذا الخطاب مثل العالم
الألماني هاجينماير⁽²⁾ والعالم النمساوي رهرشت⁽³⁾ . وهناك من
ينفي صدور هذا الخطاب عن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس مثل
العالمين الفرنسيين شالدون⁽⁴⁾ ، ودليل⁽⁵⁾ ، وغيرهما من المؤرخين
المحدثين⁽⁶⁾ . ومهما كان الأمر فإنه من الثابت أن الكسيوس
كومنين أرسل مندوباً لحضور اجتماع بيانشنزا ومعه رسالة للبابا
أوربان الثاني يستنصره على السلاجقة المسلمين⁽⁷⁾ ، وقد اعتبر
بعض المؤرخين الغربيين هذه الرسالة السبب المباشر للحروب
الصليبية⁽⁸⁾ والحقيقة أن هذه الرسالة وصلت مع المندوب البيزنطي
أثناء اجتماع بيانشنزا الذي كان قد عقد في شهر مارس من عام
(1095) للبحث في إرسال حملة إلى فلسطين ، كل ما في الأمر أن

(1) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم واللاتين» ص 53 .

Hagenmeyer (2)

Roehricht (3)

Alexis Comnène وكتابه Chalandon (4)

L'Europe Orientale ديكل وكتابه (5)

جوزيف نسيم يوسف ، العرب والروم واللاتين ، ص 53 .

(7) رل ديورانت ، قصة الحضارة ، ج 4 / 4 ص 13 .

(8) فشر ، تاريخ أوروبا ، ج 1 / ص 174 .

الرسالة كانت سندا استفاد منه أوريان في تحريض الأوروبيين
عندما عقد مجمع كليرمونت بعد ذلك في شهر نوفمبر من العام
نفسه .

ويستند أصحاب الرأي المقاتل بأن الحروب الصليبية كانت
لأسباب اقتصادية إلى خطاب أوريان نفسه . فقد عبر البابا في هذا
الخطاب عن الوضع الاقتصادي الذي كانت تعيشه أوروبا وقتذاك
قائلاً : « لا تدعوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون
أسركم . ذلك بأن هذه الأرض التي نسكنونها الآن ، والتي تحيط
بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها
الكثيرين ، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام ، ومن
أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً ، ويلتهم بعضكم بعضاً ،
وتحاربون ، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية . . . إن
أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها ، هي فردوس المباحج . . .
ودغدغ البابا مشاعر الناس بما أورده من فقرات مقدسة ، وملاحم
صليبية⁽¹⁾ . لقد كانت الشعوب الأوروبية آنذاك تعاني من مجاعة
بسبب نقص الغلال واحتكار التجار وبخاصة اليهود لها ، مما زاد
في أسعارها فاضطر الناس إلى أكل الأعشاب⁽²⁾ ، وضافت بهم
أراضيهم قرأوا في الشرق أفاقاً واسعة ، فهو الأرض التي تدرّ لنا

(1) انظر Castries, la Conquête... P. 200-206

(2) عبد العظيم رمضان ، الصراع بين العرب والروم ، ص 138 .

وعسلاً⁽¹⁾ . وتعرضت الأراضي الزراعية للغزوات الشمالية، وتحطمت الجسور فطغت المياه على المزارع، وكثر قطاع الطرق فأصبح الأوروبي في خوف وجوع، وحدث أن الشهب تساقطت بكثرة مما أحدث الفزع في قلوب الناس الذين كانوا على استعداد للهجرة⁽²⁾ .

وبسبب هذه الحالة التي وصلت إليها أوروبا رأى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية كانت بمثابة حلقة في سلسلة الهجرات التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية في القرون الخامس الميلادي، فقد أدى هذا السقوط إلى وفود قبائل جرمانية أثارت الفزع في المجتمع الأوروبي ثم ما لبثت أن امتزجت هذه القبائل بالعالم الروماني مكونة عنصراً جديداً غلبت عليه الروح المجدولة على حب الترحال⁽³⁾ . ولا نعتقد أن أحداً يوافق على أن الصليبيين جاءوا إلى الشرق هجرة، فمن الواضح أنهم جاءوا للعدوان، وما حدث بالفعل خير دليل على هذا. والقول بأن الحروب الصليبية كانت الحلقة الأخيرة من الغزوات الجرمانية التي غزت الغرب الأوروبي قول مردود عليه، فالجرمان الذين غزوا الغرب قدموا برجالهم ونسائهم وأطفالهم ومواشيهم وكل ما

(1) مكسيموس مورتونند، من تاريخ الحروب المقدسة، ج 1 ص 18-19 .

(2) ستيفن راتيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 1 ص 180-181 .

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ج 1 ص 21-22 .

يلكون للبحث عن حياة أفضل في إطار القارة الأوروبية ، الأمر الذي يمكن أن نعتبر غزواتهم هجرات ، وقد اندمج أغلبهم في المجتمع الروماني وذاّبوا فيه كما حدث للفرنجية في بلاد الغال عندما تزاوجوا مع الغالورومان ، ونشأ عن هذا التزاوج شعب جديد هو الشعب الفرنسي ، فهل حدث هذا مع الصليبيين على الرغم من طول المدة التي استغرقتها الوجود الصليبي في الشرق الإسلامي ، وقد رفعوا طوال هذه المدة شعار الحرب ضد المسلمين؟ .

كان الفلاح الأوروبي مغلوباً على أمره وكان مطالباً بالتزامات عدة لأصحاب الإقطاع الذين نوارثوا الأراضي الزراعية وتركوا عدداً كبيراً من الناس بلا أرض يقاتلون منها ، وكان البابا على دراية بأحوال الفلاحين الكادحين فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم ، وأغراهم بخيرات الشرق ، فأجابوه على الفور⁽¹⁾ .

وكان هناك من الأوروبيين من وجدوا في هذه الدعوة الصليبية فرصة للهروب من واقعهم المؤلم تحت نير الكنيسة ، وخاصة أنهم كانوا يسمعون عن الحرية التي يتمتع بها إخوانهم النصراني الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي ، لذلك يرى بعض المؤرخين أن الذهاب في الحروب الصليبية كان حيلة

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أضواء جديدة ص 12-13 .

للخلاص من قيود الكنيسة⁽¹⁾ . ولكن ليس من القبول أن نتصور أن الذين اشتركوا في الحملات الصليبية وقادوها كانوا هارين من الواقع الذي عاشه المجتمع الأوروبي تحت سيطرة الكنيسة ليبحثوا عن حريتهم في الشرق ، فلو كان الأمر كذلك لكان في مقدورهم أن يوجهوا نقيمتهم ضد الكنيسة ليحصلوا على الحرية بكل الإمكانات التي استخدموها في محاربة المسلمين في الشرق ، هذا الشرق الذي كان في وسع الأوروبي أن يرحل إليه ويعيش في ظل الحرية والعدالة والمساواة دون حاجة إلى حرب أو عدوان .

ولا ننسى ونحن نتحدث في هذا المجال الدور الكبير الذي قامت به مدن إيطاليا وبخاصة البندقية ، وجنوا ، وبيزا في الحروب الصليبية . لقد قامت هذه المدن بتوسيع نشاطها التجاري في البحر المتوسط مما أدخلها في منافسة مع المسلمين ، فقد كان القائمون على التجارة الأوروبية يرون في النشاط التجاري الإسلامي خطراً على مصابيحهم التجارية والاقتصادية ، لذلك أبدوا الفكرة الصليبية وعملوا على إنجاحها ، لأن استيلاء الصليبيين على سواحل الشام سوف يتيح لهم مزيداً من الأرباح التجارية⁽²⁾ .

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج 1 ص 24 .

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا المصور الوسطى ، ج 1 ص 429-430 .

الحقيقة أن الحروب الصليبية لم تكن وليدة هذا العامل أو ذلك وإنما كانت وليدة كل هذه العوامل التي تضافرت ، وإذا كان لا بد أن يُبحث عن الأمانى التي كانت تعتمل في نفوس الأوروبيين الذين حرضوا على الحرب ، والمذنبين قنادوتها ، والمذنبين راحوا ضحيتها من العامة والفلاحين ، فإننا نرى الكنيسة الغربية فضلاً عن رغبتها في محاربة المسلمين كانت تتوق إلى توسيع رقعتها الإقطاعية والسيطرة على الكنائس الشرقية ، والنبلاء كانوا يطمعون في ضم إقطاعات أخرى في الشرق نضفي عليهم مزيداً من الجاه والسلطان . أما الفرسان فقد كانوا يرون في الحرب إشباعاً لروح انقتال والبطولة . وأما العامة والفلاحون الذين سافروهم تحت شعار الصليب فقد ظنوا أن الرحيل إلى الشرق خلاص لهم وأمل في حياة أفضل .

وأيّاً كانت الدوافع التي أدت إلى هذه الحروب ، فقد تُدرّ للمصليبين أن يحتلوا أجزاء كبيرة من الشام ، وأن يؤسسوا إمارات صليبية في وقت كانت الجبهة الإسلامية منهكة القوى . وكان الغرب الأوروبي يمد الصليبين بحملة جديدة كلما شعر أن هناك تحركاً إسلامياً نحو تحرير بيت المقدس ، وخلال هذه المدة المطويلة التي مكثها المصليبيون في الشرق كان هناك تفاعل مع الحضارة الإسلامية من جميع جوانبها ، وعلى الرغم من أن معظم المشاركين في الزحف الصليبي كانوا من عامة الناس إلا أن

معايشتهم الطويلة للحياة الشرقية أهلتهم لأن يستفيدوا من حضارة المسلمين .

قال غوستاف لوبون⁽¹⁾ في كتابه «حضارة العرب» (لم تكن الحروب الصليبية التي كان يتمخض عنها العالم سوى نزاع عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تُعدُّ من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ)⁽²⁾ . ولكن هؤلاء الأقوام كانوا جسراً حضارياً انتقلت عبره الحضارة الإسلامية .

لقد اختلفت الآراء حول دور الشرق الإسلامي في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا فمن المؤرخين من يرى أن حضارة الشرق كانت أخذة في الاضمحلال قبيل الغزو الصليبي في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الأوروبية متدنية المستوى فلا مجال في هذه الحالة للتفاعل بين الصليبيين والمسلمين في الشرق⁽³⁾ . وأضاف أصحاب هذا الرأي أن الصليبيين جاؤوا محاربين لا طلاب علم وكانت ظروفهم صعبة لا تتيح لهم فرصة التأثير بالمسلمين⁽⁴⁾ . قال ول ديورانت إن معظم المشاركين في الحملات الصليبية لا يعنيه من علوم الشرق شيء ، لذلك فإن تسرب

(1) Gustave le Bon و كتابه La Civilisation des arabes

(2) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص 347 .

(3) ليليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج 2 ص 250 .

(4) سعيد عبد العناح عاشور ، الحركة الصليبية ، ج 2 ص 1269-1270 .

العلوم الإسلامية إلى الحضارة الأوروبية كان عن طريق إسبانيا
وصقلية⁽¹⁾.

وأكد أحد المؤرخين على أن الحضيلة الحضارية التي استفادها
الصليبيون من الشرق ضئيلة جداً، على الرغم من طول إقامتهم
فيه⁽²⁾، وذهب بعضهم إلى أن من الخطأ أن يُعزى إلى الشرق
الإسلامي أي أثر علمي، وأن من المستبعد أن تكون هذه الحروب
عامل تفاعل بين الشرق والغرب لذلك فتأثير الشرق - كما قال هذا
المؤرخ - أمر تافه في مجال العلوم الصرّفة والآداب⁽³⁾.

ومن ناحية أخرى نرى كثيراً من المؤرخين يؤكدون على أهمية
الشرق كمعبر من معايير الحضارة الإسلامية، ولكن بعضهم يقصر
الأثر الشرقي على العلماء من الصليبيين الذين أتاح لهم الفراغ
فرصاً كثيرة تعرفوا فيها على الثقافة الإسلامية أمثال أدلارد أوف
بات⁽⁴⁾ وستيفن الأنطاكي⁽⁵⁾ وغيرهما من ذوي الذكاء الذين عاشوا
في الشرق فترة زمنية تؤهلهم للتزود بالمعارف العربية⁽⁶⁾.

(1) روك دهورانت، قصة الحضارة، ج 4/4 ص 65.

(2) ماكس مايرهوف، العلوم والطب، ص 499-500.

(3) حيدر بامات، مجالي الإسلام، ص 289 - 291.

(4) Adalard Of Bath (1135-1070).

(5) Stephanus Antiochenus طبيب نورماني.

(6) الكروميلى، العلم عند العرب، ص 438-440.

وبعضهم يحصر هذا الأثر في طبقة النبلاء والأمراء والكنسيتين⁽¹⁾. وهناك مؤرخون غربيون أكدوا في كتاباتهم على أن الحروب الصليبية كانت وسيلة للتأثير الشرفي الذي أدى إلى تفتح عقول الأوروبيين، وأن هذه الحروب كانت العامل الوحيد على تقدم أوروبا، وأن تطورات العصور الوسطى في شتى النواحي ازدهرت في أوروبا زمن الحرب الصليبية⁽²⁾.

ويمكننا أن نعتبر الشرق الإسلامي معياراً من معايير الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، لأن الصليبيين كان لهم مع المسلمين علاقات سلمية كانت بمثابة قناة حضارية أوصلت الأثر الشرفي إلى الأوروبيين من خلال الصليبيين العائدين إلى بلادهم. ولم تمنع حالة الحرب المعلنة بين الإفرنج والمسلمين الاتصالات السنية سواء على مستوى الشعب أو الفادة.

ويحدثنا ابن جبير عن التعايش السلمي بين الفريقين فيقول: «ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم⁽³⁾». ويقول: لاهذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم، وفي

(1) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 3 ص 817-818.

(2) أحمد شلي، الحروب الصليبية، ص 87-88.

(3) ابن جبير، الرحلة، ص 201.

انفتحة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض
الرحايا ولا النجار، فالأمن لا يفار فهم سلماً أو حرباً⁽¹⁾.

أما على مستوى القادة فإننا نرى أنه في سنة اثنتين وستين
وخمسمائة (سنة 1166 ميلادية) قامت بين شاور⁽²⁾ وزير العاضد
الفاطمي وبين الإفرنج علاقات ودية أسفرت عن إقامة مجموعة
صليبية في القاهرة والإسكندرية مدة تقرب من عامين⁽³⁾. ولا
شك أن هذه المجموعة قد تأثرت بالمسلمين من خلال تعاملهم
اليومي معهم. وفي الشام كان ثمة اتصالات بين أمراء المسلمين
وزعماء الإفرنج فيذكر لنا أسامة بن منقذ في كتابه⁽⁴⁾ الاعتبار أن
دنكري⁽⁴⁾ صاحب أنطاكية كان صديقاً لآل منقذ في شيزر⁽⁵⁾ وكان
قد أرسل إليهم فارساً ومعه رسالة منه ذكر فيها أن هذا الفارس قدم
من أوروبا للحج وفي طريق عودته يريد أن يزور شيزر ويشاهد

(1) المصدر نفسه.

(2) هو أبو شجاع شاور بن محير بن نزار السعدي، كان يلقب بأمر الجيوش. استولى
على وزارة مصر بعد أن قتل رزيق بن صالح. وكان له علاقة بالإفرنج. ولما دخل
أسد الدين شيركو، مصر اتفق مع العاضد على قتل شاور. فقتل على يد صلاح
الدين الأيوبي (ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 6/351 بتحقيق محمود
الأرنؤوط، وغير الثمن الزركلي، الأعلام ج 3 ص 154).

(3) أبتدري، سنا البرق الشامي، ص 39.

(4) Tancrede de Hauteville أمير أنطاكية (1101-1111).

(5) شيزر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينهما وبين حماة يوم، في
وسطها نهر الأردن (العاصمي). باقوت، معجم البلدان ج 3 ص 383 والبغدادي:
مراصد الأطلاع 2/826.

فرسانها⁽¹⁾ . ويذكر أسامة أيضاً أن جو سلين⁽²⁾ صاحب نلّ بآشر⁽³⁾ أغار على الرقّة⁽⁴⁾ وقلعة جعير⁽⁵⁾ وغنم منها غنائم كثيرة ثم عبر الفرات وأقام على ضفتيه ، فعبر إليه نجم الدولة مالك⁽⁶⁾ صاحب قلعة جعير وكانت بينهما صداقة قديمة فاستقبله جو سلين استقبالاً حسناً وردّ عليه الغنائم⁽⁷⁾ .

إضافة إلى العلاقات الودية بين المسلمين والصليبيين فقد كانت قصور الزعماء الصليبيين لا تخلو من العرب⁽⁸⁾ ، وهذا الأمر يعطينا صورة جلية عن الحياة اليومية التي يسودها التفاعل بين الفريقين مما يجعل الوجود الصليبي في الشرق وسيلة لنقل عادات المسلمين وآدابهم إلى أوروبا . وبوساطة الصليبيين عرفت أوروبا الشيء الكثير عن الشرق⁽⁹⁾ .

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص 49 .

(2) Jocelin I de Courtenay مات عام 1113 م .

(3) قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب (باقوت) ، المعجم ج 2 ص 40 .

(4) بنتج أوله وثانيه وتشديده . . . مدينة مشهورة على الفرات (باقوت) ، معجم البلدان ج 3 ص 58-59 .

(5) قلعة على الفرات بين بالسر والرقّة قرب صفين (باقوت) ، معجم البلدان ج 2 ص 142 .

(6) مالك بن سالم بن بدران بن مقلد بن المسيب العقيلي ، من أسرة العقيلي الذين توارثوا حكم جعير منذ سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى أن أخلعها عنهم نور الدين محمود زنكي (نحير الدين الزركلي ، الأعلام ، ج 3 ص 72) .

(7) ابن منقذ ، المصدر السابق ص 90 .

(8) انظر البتداري ، سنا البرق الشامي ، ص 90 .

(9) انظر عباس محمود العقاد ، أثر العرب ، ص 114-115 .

إننا لا نريد من هذه الأمثلة أن تثبت أن الأثر الشرقي بمستوى أثر أسبانيا وصقلية لأن هذين المعبرين ساهما مساهمة كبيرة في نقل الحضارة الإسلامية بحكم موقعهما في أوروبا، ولكننا في الوقت نفسه نؤكد أهمية الدور الحضاري الذي قام به الشرق خلال الوجود الصليبي على أرضه. نئن كان الصليبي القادم مع الحملة الأولى غير مؤهل لتأثر بحضارة الشرق نظراً لتعصبه وجهله، فإن الصليبيين فيما بعد قد تأثروا بهذه الحضارة التي كان لها أثر في تمدن الغرب، فقد استطاع الشرق أن يحضر الصليبيين ويعدهم لنقل آثاره إلى أوروبا. مساهماً مع المعابر الأخرى في نشر العلوم والآداب بين الأوروبيين، الأمر الذي مهد لعصر النهضة الأوروبية⁽¹⁾.

ويجدد بنا أن نورد نصاً للمؤرخ الفرنسي فوشيه دي شارتر⁽²⁾ الذي أרך للحملة الأولى، والذي عبّر فيه عن مدى تأثر الصليبيين بالحياة الجديدة حيث قال: «الآن صونا نحن الذين كنا غربيين - شرقيين، ومن كان متاً إيطالياً أو فرنسياً، أصبح في هذه البلاد جليلاً أو فلسطينياً. والذي كان من مواطني ريمس⁽³⁾ أو شارتر أصبح الآن صورياً أو أنطاكياً. لقد نسينا الأماكن التي ولدنا فيها.

(1) انظر على حسي الخربوطلي، الإسلام وأهل السنة، ص 206.

(2) Foucher de Chartres : راهب ومؤرخ فرنسي (1127-1058).

(3) Reims : مدينة في فرنسا.

وأكثرنا لا يعرفها، بل لم يسمع بها، ولكل منا بيته وأهله، كما لو أنه ورثه من أبيه أو من شخصٍ سواه. ونزوح بعضنا لا من بنات أو طائنا وإنما من سوريات وأرمنيات، وحتى مسلمات مُصَّرات، وأصبح من كان هنا يعدُّ أجنبيًّا مواطناً، ومن كان مهاجراً صار من أهل القرار. وفي كل يوم يلحق بنا إلى الشرق أنوار وأصدقاء، تاركين وراءهم كل ما كان في حوزتهم وهم في الغرب. وأما من كانوا فقراء هناك فقد أحنأهم الله هنا، ومن كان خاوي اليدين إلا من دريهمات معدودات، أصبح لديه من القطع الذهبية ما لا يحصره عدُّ، ومن لم تكن لديه قرابة أصبح يمتلك - والمعطي هو الله مدينة برمتها. فلماذا نعود إذن إلى الغرب ما دام الشرق يهيئ لنا كل هذا⁽¹⁾؟

في هذا النص نرى فوشيه شارتر يتحدث عن التغييرات التي طرأت على الصليبيين بعد معاشتهم للمسلمين، وذكر أن بعضهم تزوج من نساء المسلمين ونصارى الشام. وبين أن كثيراً من الصليبيين تمكَّنوا من جمع ثروة طائلة مما جعلهم لا يفكرون في العودة إلى الغرب لأن الشرق أصبح في اعتقادهم الحاضر والمستقبل. وكثير منهم نسوا انتماءهم إلى بلادهم الأصلية في أوروبا، بل إن الذين ولدوا في الشرق منهم لا يعرفون عن تلك

(1) برنارد تويس، العرب في التاريخ، ص 216-217.

البلاد شيئاً. ولا شك أن هذا الوصف يدلُّ على ذوبان المجتمع
الصلبي في المجتمع الإسلامي مما أسفر عن تأثيرات حضارية
انتقلت إلى الصليبيين وعبرهم إلى أوروبا. وستحدث عن الآثار
الفكرية للشرق الإسلامي في الفصول القادمة.

* * *

الفصل الثاني



الأثر اللغوي والأدبي

نقاط العمل

- دور اللغة في الاتصال الحضاري - الصليبيون واللغة العربية -
- المفردات العربية في اللغات الأوربية - الشعر - فن الهجاء -
- التروبادور - الجوليارديون - القصة في الأدب اليوناني والروماني -
- القصص الشرقية في التراث الأوروبي - أثر القصة العربية -
- التدوين التاريخي - المؤرخون الفرنجة - المؤرخون الألمان - المؤرخون
الإنجليز - المؤرخون الإيطاليون - المؤرخون الصليبيون في الشرق -
- الرحالة - أثر الشرق على المؤرخين الصليبيين - المؤلف المجهول -
وليم الصوري .

* * *

الأثر اللغوي

اللغة وسيلة تخاطب وتفاهم بين الناس ، بها يستطيع الإنسان أن يعبر عن غايته ، ومن خلالها يعتز المرء بأمنه ، ففيها تراثه وثقافته .

وعن طريق دراسة لغة من اللغات يتعرف الباحث على مستوى الأمة الحضاري ، ويرصد علاقاتها من خلال الكلمات الدخيلة عليها . إذ أن العلاقات التجارية والسياسية التي قامت وتقوم بين الشعوب تسفر عن تسرب مفردات كثيرة من لغة إلى لغة .

واللغة العربية هاجرت مع الفاتحين الأوائل من مهدها شبه الجزيرة العربية لتواكب انتشار الإسلام فأضحت لغة حضارية سائدة ، لم تتأثر بغزو الغزاة بل بهرتهم بعلمها وفتونها ، وهذا ما حدث للصليبيين الذين وجدوا أنفسهم وسط محيط إسلامي يزخر بحضارة ومدنية ، فلم يكونوا بمعزل عن ذلك .

لقد كانت الفرص مواتية لاتصال الصليبيين بالمسلمين بحكم التعايش بينهم في المنطقة ، حيث كانت فترات السلم أطول بكثير من فترات الحروب ، وقد أتاح هذا فرص اللقاء بينهم على مستوى

القادة والأفراد⁽¹⁾. كانت هناك في أوقات السلم والحرب اتصالات بين زعماء العرب والإفرنج، فكانوا يوقفون حرباً دائرة ليتبادلوا عبارات التحية والاحترام، وربما اشترك الجنود في مشاهدة حفلة منعة⁽²⁾. فيخبرنا ابن شدّاد أنه في إحدى معارك عام خمسة وثمانين وخمسمائة (سنة 1189 ميلادية) سئم الرجال من القتال فقالتوا: «إلى كم يتقاتل الكبار وليس تلصغار حظ، نريد أن يصطرخ صبيان: صبي منا وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد [المسلمين] إلى صبيين من الإفرنج واشتد الحرب بين الصبيان، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الكافرين فاخبطه وضرب به الأرض وقبضه أسيراً واشتد به نياًخذة فاشترى بعض الإفرنج بدينارين وقالوا: هو أميرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه»⁽³⁾.

وقد أورد أسامة بن منقذ خبر رسالة بعث بها رجار⁽⁴⁾ صاحب أنطاكية إلى عمّه عز الدولة⁽⁵⁾ في شبّاز يخبره بأنه قد أرسل فارساً

(1) فيليب حتي، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ص 223.

(2) ستهن واتسمان، تاريخ الحرب الصليبية، ج 3 ص 59.

(3) ابن شدّاد، سيرة صلاح الدين، ص 108-109.

(4) Roger d'Antioche (1119-1112).

(5) نصر بن عني بن مقلد بن نصر بن منقذ الكتاني، أبو المرفف، عز الدولة، أمير كانا له ولأسلافه حصن شبّاز، ملكه بعد أبيه في سنة تسع وسبعين وأربعمائة وظل إلى حين وفاته في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. كان شجاعاً وشاهراً وأديباً (غير الدين الزركني، الأعلام ج 8 ص 26).

إلى القدس في مهمة خاصة، ويطلب منه أن يؤمن سفره من أفامية⁽¹⁾ إلى رنية⁽²⁾، ولما التقى الفارس بعز الدين أعلمه بحقيقة هذه المهمة. ونفهم مما دار بينهما في هذا اللقاء أن الفارس كان يتحدث باللغة العربية⁽³⁾. وأخبرنا ابن شداد في معرض حديثه عن حصار المسلمين لشقيف أرنون ستة خمسين وثمانين وخمسة مئة أن أرناط⁽⁴⁾ صاحب صيدا اخترق صفوف المسلمين ودخل خيمة صلاح الدين وتحادثا دون وسيط، لأن أرناط كان يتقن العربية وعنده مسلم يقرأ له⁽⁵⁾ كما يخبرنا وليم الصوري⁽⁶⁾ أن ريموند كونت طرابلس⁽⁷⁾ خلال سنوات أسره (1164-1172) عند نور الدين، انكب على تعلم اللغة العربية ودراسة سبل المسلمين وأساليبهم⁽⁸⁾ كما أن همفري⁽⁹⁾ سيد تينين قام بالترجمة بين

(1) مدينة حصية من سواحل الشام وكورة من كور حمص (ياقوت، معجم البلدان ج 1 ص 227).

(2) رنية: بنتج أوله وثانيه، وكسر النون، ونشيد الياء... كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها رنية تدمر، وقال قوم: رنية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام (ياقوت، معجم البلدان ج 3 ص 95).

(3) انظر ابن مقذ، الإعيان، ص 87.

(4) Renaud de Sidon (1167-1187).

(5) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص 97.

(6) Guillaume de Tyr (1113-1186).

(7) Raymond III de Tripoli (كونت طرابلس 1173-1187).

(8) وليم الصوري عند ستينين رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2 ص 653.

(9) Hamfroi IV de Toron (سيد تينين 1179-1180).

ريتشارد قلب الأسد⁽¹⁾ والملئك العادل في المحادثات التي جرت بينهما ، وأيضاً بلدوين الأبليني⁽²⁾ الذي قام بترجمة بين المصريين ولويس التاسع⁽³⁾ أثناء أسره في مصر⁽⁴⁾ .

وقد أسلفنا أن قصور زعماء الإفرنج كانت لا تخلو من كتّاب مسلمين ، وأن وفود الصليبيين إلى المسلمين كانت تضم عضواً مسلماً على الأقل .

وأخبرنا ابن جبير أنه عندما زار عكا . وكان ذلك يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة من عام ثمانين وخمسمائة (سنة 1184 ميلادية) - رأى في ديوانها كتّاباً نصارى يكتبون بالعربية ويتكلمون بها⁽⁵⁾ ، وقد وصلت العلاقات الودية بين المسلمين والصليبيين إلى حد أنهم كانوا يشتركون في رعي مواشهم ويتقاسمون الغلّة دون حيف⁽⁶⁾ . وكان من مظاهر العلاقات الودية أن بعض التجّار المسلمين كانوا ينزلون في خانات الصليبيين وعند الأسر الصليبية ، يخبرنا ابن جبير أن هذا هو ما شاهده في عكا⁽⁷⁾ وقد كان بعض

(1) Richard the Lion Heart (1189-1199) .

Baudouin d'Ibelin (2)

Louis IX. (1226-1270) . (3)

(4) انظر زكي النفاش ، العلاقات ، ص 198 .

(5) ابن جبير ، الرحلة ، ص 211 .

(6) المصدر نفسه ص 210 .

(7) ابن جبير ، المصدر السابق ص 211 . وانظر مستيفن رانسيمان ، تاريخ الحروب

الصليبية ، ج 1 ص 611 .

طلاب العلم من الصليبيين المقيمين في الشام ووافدين من أوروبا يلتحقون بالمدارس العربية يتلقون علومهم بنغمة العرب⁽¹⁾، ولا ننسى الدور الذي قامت به القبائل العربية النصرانية التي امتزجت بالصليبيين إخوانهم في الدين، فقد كان لها أثر في نشر اللغة العربية بينهم⁽²⁾.

ولا بد أن نتصور أن الصليبيين الذين عرفوا اللغة العربية كانوا في مجموعهم يتكلمون اللغة النارجية لغة الحياة والمعاملات اليومية. وهذا ما كان مشاهداً في الجمارك والمصارف ومختلف الجهات والمؤسسات التي كان يعمل بها موظفون صليبيون، وأيضاً بين عامة الصليبيين الذين كانوا يختلطون بالمسلمين في المساكن والأماكن.

وكان طبيعياً أن التجار الأوروبيين الذين يأتون إلى الموانئ الصليبية في بلاد الشام وموانئ مصر كانوا يلتقطون بعض الألفاظ والمصطلحات العربية والنارجية التي كان الناس في الموانئ يتداولونها عادة. ولم يكن من الصليبيين من عرف اللغة العربية الفصحى إلا المثقفون الذين كانوا يحكم اهتمامهم يحرصون على دراستها، كما كانوا يحرصون على دراسة الأدب العربي، أمثال وليم الصوري ووليم الطرابلسي⁽³⁾.

(1) انظر السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 232.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج 2 ص 1270.

(3) انظر أيضاً فليب حتي، تاريخ لبنان، ص 390.

لقد أدت هذه المعايضة إلى تسرب كثير من المفردات والمصطلحات العربية لا يمكن حصرها على وجه الدقة، لأن بعض هذه المفردات والمصطلحات، إن لم يكن أكثرها، كانت شائعة ومتداولة في المجتمع الإسلامي في إسبانيا وصقلية، وهما أيضاً من المعابر التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وقد أخذ منهما الأوروبيون بما فيهم الصليبيون العائدون بعض الكلمات العربية. وغني عن القول أن المفردات العربية التي نقلت إلى اللغات الأوروبية خضعت لقواعد الإعراب اللاتينية وإعراب اللغات القومية وتصحّفت أكثرها في مراحل النسخ حتى صار من الصعب تمييز أصولها العربية. وهذه مشكلة تواجه المعجميين الأوروبيين الذين يصنفون معاجم اللغة اللاتينية الوسيطة واللغات القومية، فهم يجدون صعوبة في تكيف بعض هذه المفردات وتأصيلها وشرح معانيها⁽¹⁾.

وعلى أية حال فقد استطاع بعض العلماء الأوروبيين المحدثين أن يضعوا أيديهم على مفردات عربية نقلها الصليبيون إلى لغاتهم من الشرق الإسلامي. من هذه المفردات على سبيل أمثلة كلمة تعريف، في الإنجليزية Tariff، في الفرنسية Tarif، في الأسبانية والبرتغالية Tarifa⁽²⁾، وليست الكلمة العربية المقابلة تعريفه، كما

(1) Dozy-Ringelman, P. 348.

(2) انظر على سبيل المثال باركر، الحروب الصليبية، ص 151-152.

كان يظن⁽¹⁾ وكلمة منكرا، وهي من اللفظة الفارسية سُكْر، في الإنجليزية Sugar في الفرنسية Sucre في الإسبانية Azucar⁽²⁾.
 وكلمة «جلاب» (وهو شراب معد من بعض الأعشاب المعطرة في الإنجليزية Julep والفرنسية Julep في الإسبانية والبرتغالية Julepe في الإيطالية giulebbe⁽³⁾. وكلمة لاسمت⁽⁴⁾ في الإنجليزية Zenith في الفرنسية Zénith في الإسبانية Azimut⁽⁴⁾. وكلمة «شراب» في الإنجليزية Syrup وفي الفرنسية Sirop وفي الإيطالية Scioppo و Soroppo وفي الإسبانية axarabe و axarave xarabe وكلمة «عود» في الإنجليزية والفرنسية Luth وفي الإيطالية Liuto وفي الإسبانية Laud وفي البرتغالية alarde⁽⁵⁾. وكلمة «جرة» في الإنجليزية Jar وفي الفرنسية Jarre وفي الإسبانية Aliara و Jarro وفي البرتغالية Jarro و Zarro وفي الإيطالي Giara و Giarro⁽⁶⁾.

* * *

(1) Dozy-Engelman, P. 226. انظر أيضاً عمر فروخ، اخضرار الإنسانية، ص 19.

(2) Dozy-Engelman, P. 293. انظر أيضاً ماكس مايرهوف، العنبر والطلب، ص 480.

(3) Dozy-Engelman, P. 227. انظر أيضاً هارولد لامب، شهرة الإسلام، ص 640.

(4) Dozy-Engelman, P. 218. انظر أيضاً ماكس مايرهوف، العلوم والطلب، ص 485.

(5) د علي النعماني «أثر الثقافة الإسلامية» ص 4.

(6) Dozy - Engelman, P. 60.

(7) Dozy - Engelman, P. 139-140, 290-291.

الثقافة الأدبية

الشعر :

جاء الأثر الأدبي امتداداً للأثر اللغوي، فقد رافق الحملات الصليبية عدد من الشعراء، من أشهرهم بيرفدال⁽¹⁾، وكونان دو بيتون⁽²⁾، وجونز دو شابتوي⁽³⁾، ونيبو دو شامباني⁽⁴⁾، والشاعران المشهوران راؤول دو بواسون⁽⁵⁾، وفيليب دو نانتو⁽⁶⁾، وقد وجد هؤلاء في الشرق مجالاً واسعاً لتطوير خيالهم الشعري، وكانوا في بداية الأمر مشغولين بوصف الحروب والدائرة ضد المسلمين، والظروف الحياتية خلال فترات السلم، ولكنه وصف يمتزج فيه الخيال بالواقع .

وبعد استقرارهم في الشرق واحتكاكهم بالمسلمين واطلاعهم

(1) Peir Vidal شاعر إنجليزي رافق ريتشارد قلب الأسد في حملته على الشرق عام 1189م وهو من شعراء الأثر ويدور مات عام 1210م .

(2) Coreu de Bethune .

(3) Pons de Chapeuil رافق فريدريك الثاني في الحملة السادسة على الشرق عام 1229م .

(4) Thibaut IV de Champagne .

(5) Raoul de Poissons .

(6) Philippe de Nanteuil .

على الآداب العربية تطورت مفاهيمهم الشعرية . وكان فن الهجاء غير معروف في الشعر الأوروبي في العصور الوسطى ، وإن كان معروفاً لدى الرومان ، إلا أنه في هذه العصور حل محل الشعر الديني الذي تباركه الكنيسة وشعر المناسبات .

أما فنُّ الهجاء فقد كان مُحَرَّمًا في عرف الكنيسة لأنه يؤدي إلى النقد ، وهذا ما يحاربه رجال الدين ، لذلك تنفس الشعراء الصليبيون الصُّعْدَاء في الجوار الشرقي المقعم بالحرية ، فبدأوا ينظمون قصائد الهجاء ضد الكنيسة . ونتيجة لذلك ظهر في أوروبا في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شعراء سياسيون أمثال ماربو دي رين⁽¹⁾ في فرنسا ، وبطرس داميان⁽²⁾ في إيطاليا ، ووليم أوف جلاسجو⁽³⁾ في إنكلترا ، ويوردان فون بادربورن⁽⁴⁾ في ألمانيا⁽⁵⁾ .

وكان أشهر من وجه نقداً لاذعاً للكنيسة شعراء التروبادور⁽⁶⁾ في جنوب فرنسا ، وشعراء الطلاب في جامعة باريس المعروفون بالجيوتياردين⁽⁷⁾ . أما عن شعر التروبادور فقد تطور على أيدي

(1) Marbaud de Rennes

(2) Pietro Damiani

(3) William of Glasgow

(4) Jordan Von Padernon

(5) د . علي النعراوي ، أثر انتقاة الإسلاميه ص 5 . 9 .

(6) Troubadour

(7) Goliardi

الشعراء الذين رافقوا الحملات الصليبية إلى الشرق⁽¹⁾ . ويقال :
إن أول من أحدث هذا التطور جيّوم التاسع دوق أكيثانيا⁽²⁾ الذي
عاش على مفترق القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، والذي أصدر
ضده أسقف بواتيه⁽³⁾ قراراً بحرمته بسبب غرامه بهذا النوع من
الشعر وعدم اكتراثه بتعاليم الكنيسة⁽⁴⁾ .

اشترك جيّوم في الحملة الصليبية الأولى مع من اشترك فيها
من شعراء التروبادور ، فمكث في أنطاكية والقدس وبافا نحو سنة
ونصف ، خالط فيها شعراء المسلمين ، وكانت هذه المدة كافية لأن
تؤثر على حسه الشعري⁽⁵⁾ ، فقد أتيح له سماع الزجل الشامي
الذي كان المسلمون يتغنون به في السلم والحرب ، وكان نصارى
الشام يقومون بشرح هذه الأناشيد للمهتمين من الصليبيين⁽⁶⁾ .
والحقيقة أن أشعار جيّوم لم يبق منها سوى إحدى عشرة قصيدة ،
ست قصائد منها عبارة عن شعر خليل ماجن والخمسة الباقية سما
فيها الشاعر إلى الحب العفيف⁽⁷⁾ .

(1) د . علي الغمراوي وأثر الثقافة الإسلامية ، ص 9 .

(2) Guillaume IX d'Aquitaine (1071-1127) . كونت بواتيه ودوق أكيثاني .

(3) Poitiers مدينة مشهورة في فرنسا .

(4) عبد الغادر اليوسف ، العصور الوسطى الأوروبية . ص 224 .

(5) سهير الفلماوي ومحمود علي مكّي ، الشعر العناني ، ص 57 .

(6) حيدر بامات ، مجالي الإسلام ، ص 300 ، 302 .

(7) مرم البغدادي ، شعراء التروبادور ، ص 101 .

وقد سار التروبادور في أشعارهم على منوال جيوم أمثال سيركامون⁽¹⁾ الذي نظم قصيدة عن مدينة الرُّهّا، وجوفري روديل⁽²⁾ الذي كان واحداً من شعراء الحملة الصليبية الثانية⁽³⁾. وقد هام أثناء إقامته في الشام بحب كونتيسة طرابلس التي لم تسمح ظروفه بمقابلتها، فأثب فيها قصيدة «الحب البعيد» ارتفع فيها إلى الحب الروحي التزيه، بخلاف قصائده الماجنة التي قالها في أوروبا قبل مجيئه إلى الشرق⁽⁴⁾.

والحقيقة أن أول ظهور للشعر التروبادوري كان في القرن الحادي عشر في شمال إسبانيا وإقليم البروفانس في جنوب فرنسا. ونظراً إلى ازدهاره في البروفانس فقد نسب إلى هذا الإقليم وعرف بالشعر البورفانسالي. وقد انتشر هذا الشعر بعد ذلك في مختلف بلدان أوروبا وبصفة خاصة في إيطاليا وإنجلترا وألمانيا⁽⁵⁾. وقد اختلف العلماء والنقاد على أصل هذا الشعر، بل إنهم اختلفوا على اشتقاق كلمة «التروبادور» فالبعض يرى أنها العبارة العربية «دور طرب» «وقلّبت طرب دور». والبعض الآخر

(1) Cercamon.

(2) Jaufre Rudel مات في حصار دمشق عام 1147م.

(3) سهر القلموني ومحمود علي مكي «الشعر الغنائي» ص 59-60.

(4) مريم البيغدادي، المرجع نفسه ص 102.

(5) عبد القادر اليرسيف، الحصور الأروبية ص 224، د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص 9.

يرى أنها كلمة بروفنسالية مشتقة من الفعل البروفنسائي «تروبار»⁽¹⁾، ومعناه يبحث ويبدع ويبتكر، ويقابله في الفرنسية الفعل «تروفيه»⁽²⁾ فالثروبادور بهذا المعنى هو الشاعر الذي يبتكر أشكالاً شعرية جديدة لقصائده الغنائية وتستخدم الكلمة في المفرد والجمع⁽³⁾.

وقد ثبت من الدراسات الحديثة أن شعر الثروبادور استمد قوالبه وصوره من الشعر العربي وخاصة من الأزجال والموشحات الأندلسية، كما أخذ عنه موضوعات الغزل والحب العنيف، وهي موضوعات لم يكن الشعر الأوروبي يعرفها منذ عصور اليونان والرومان⁽⁴⁾.

ومن آثار الشعر العربي في هذا النوع من الشعر وجود القافية التي دخلت الشعر الأوروبي لأول مرة، هذا وإن كان بعض الأوروبيين قد حاولوا البرهنة على أن القافية وجدت في الشعر الأوروبي القديم في الروايات الهزلية التي كتبها الشاعر الروماني «بلاوتوس»⁽⁵⁾ في القرن الثاني قبل الميلاد، كما حاولوا البرهنة

(1) Trobar .

(2) Troiver .

(3) د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص 9، انظر أيضاً عبد القادر اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ص 224 .

(4) د. علي الغمراوي المرجع المذكور ص 10 .

(5) Titus Maccius Plautus (توفي عام 184 قبل الميلاد).

على أن شعراء التروبادور تم يستمدوا أفكارهم من الشعر العربي ، وإنما استمدوها من فكرة الخير واجمال في الفلسفة الأفلاطونية ، وأن تأثيرهم كان إلى حد بعيد بشاعر الحب الروماني أوفيد^(١) الذي عاش في مشرق العصر الميلادي ، وأن صياغتهم للشعر كانت نتيجة لتطور طبيعي في الشعر الفرنسي القديم . وقد أراد هذا النقر من العلماء الأوروبيين أن ينفوا أصالة القافية والموضوعات في شعر التروبادور وينفوا بالتالي أثر الشعر العربي ، ولكن الدراسات الحديثة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أثر الشعر العربي في شعر التروبادور^(٢) .

وقد أشاع التروبادور حول النساء جوّاً من الأدب واللباقة فرضت روح الشهامة والمبادئ الإسلامية التي تدعو إلى حسن معاملة المرأة ، فلم يسبق للمرأة الأوروبية في العصور القديمة والعصور الوسطى أن احتلّت مثل هذه المكانة . ففي العصور القديمة لم يكن للمرأة دورٌ يذكر في المجتمع فيما عدا النساء اللاتي لعبن بعض الأدوار السيامية . وفي العصور الوسطى لم تكن المرأة في نظر الكنيسة إلا كائناً يقتصر دوره على الإنجاب . ولذلك لم يكن محض مصادفة أو محض انجاء من الاتجاهات الآنية التي تطرأ على خيال الشعراء أن تكون المرأة والتغني بأفضالها موضوعاً

(١) Ovidius (٤٣ ق.م - ١٨ م)

(٢) د. علي الغمراوي ، أثر الثقافة الإسلامية ، ص ١٠ .

رئيسياً في شعر التروبادور، ومحوراً تدور حوله المواقف والنصوُّر الشعرية⁽¹⁾. وقد شبَّه بعض الشعراء البروفانسِيِّين سيطرة محبوبته عليه كسيطرة زعيم الحشاشين⁽²⁾ في الشام على أتباعه، فقال أحدهم: «أنت تسيطرين عليّ بسحرك أكثر مما يسيطر الشيخ علي حشاشيه الذين يذهبون لقتل أعدائه الفاتين» وقال آخر: «كما يخدم الحشاشون سيدهم بإخلاص لا ينضب، كذلك أحبك بولاء لا يكِل»⁽³⁾.

أما فيما يتعلق باتجاه الشعراء الجوليارديين، فإنه اتجاه مماثل لاتجاه التروبادور من حيث عداؤهم للكنيسة. وظهر الشعر الجولياردي في شمال فرنسا بأقلام طلاب جامعة باريس الذين نادوا بالتحرر من قيود الكنيسة وتبغ منهم شعراء نظموا قصائد المهجاء نقدوا فيها مواقف الكنيسة إزاء الحروب الصليبية وتجراًوا على كشف مفاصد البابوات والرهبان، وهيمنة المستغلين من رجال الإقطاع⁽⁴⁾.

(1) د. علي العمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص 11.

(2) الحشاشون هو الاسم الذي أطلق على الفرع الشامي من الإسماعيلية، ولاحقة لهذا الاسم بالكلمة الأوروبية Assassini، لأن أصل التسمية يعود إلى لفظة (حشيش) لأنهم كانوا يتعاطونه على يد أمتهم قبل القيام بمهمة الاغتيال (دائرة المعارف الإسلامية، ج 7 ص 434).

(3) برنارد لويس، الحشاشون، ص 18.

(4) د. علي العمراوي، أثر الصحافة الإسلامية، ص 12-13.

وكان من هؤلاء الشعراء البارزين هيودي أورليبان⁽¹⁾ الذي درس في باريس وعلم فيها⁽²⁾ . وكان لهذا الشعر الجوليباردي أثر كبير في المجتمع الأوروبي والمجتمع الفرنسي بصفة خاصة ، هذا المجتمع الذي جذبه أنغام الشعر المعبرة عن واقع المأساة التي عاشها لسنوات طويلة تحت وطأة أنظمة الكنيسة الرافضة لكل جديد ، ومحامية أن هذه النغمات تنسجم مع المبادئ الحرة التي أخذت تغزو أوروبا عندما وصل التراث الإسلامي إليها عن طريق إسبانيا وصقلية ، والآن عبر الشرق الإسلامي الذي شهد تجمعاً أوروبا لم يسبق له مثيل تاريخه ، وقد ظهرت النغمة الجوليباردية أيضاً في الشعر الغنائي الذي نظم في ألمانيا في القرن الثالث عشر وتمثل خير تمثيل في الأغاني البورانانية⁽³⁾ التي نددت فيما نددت بجشع البابوات والكرادلة⁽⁴⁾ .

* * *

(1) Hugues de Orléans (1150-1090) .

(2) سعيد عاشور ، أوروبا المصور الوسطى ، ج2 ص441-442 .

(3) Carmina burana .

(4) د . علي الصمراوي ، أثر الثقافة الإسلامية - ص13 سعيد عاشور ، أوروبا المصور الوسطى ، ج2 ص441-442 .

القصة :

تجاوز الأثر الأدبي إلى انقصة الأوروبية، فقد كان الأدب الأوروبي يفتقر إلى القصة الخيالية ذات المغزى الأخلاقي . لقد كانت القصة في الأدب اليوناني أسطورية تدور حول آلهتهم وهي ما يعرف بالقصص الميثولوجية أو «الميثولوجيا»⁽¹⁾ لكنها لا تتضمن فكرة أخلاقية بل إنها تصور آلهتهم بصور بشر ذوي شهوات ونزوات، وكذلك الأدب الروماني الذي بخلو من القصة الهادفة . وعلى الرغم من أن اليونانيين والرومان عرفوا الملحمة والمسرح الشعري إلا أنهم لم يعرفوا فن القصة الشعرية، فهذا لم يظهر في أوروبا إلا في بداية القرن الثاني عشر وبتأثير من القصة في الأدب الشرقي والأدب العربي بصفة خاصة⁽²⁾ . ومن القصص الشرقية التي انتقلت إلى الأدب الأوروبي قصة «كليلة ودمنة» التي كتبت على شكل حوار بين الحيوانات وعرف هذا النوع القصصي باسم «قالبليو»⁽³⁾ وأول من كتب في هذا المجال رينار⁽⁴⁾ حوالي سنة 1150⁽⁵⁾ .

(1) Mythology .

(2) د . علي انعمراوي « أثر الثقافة الإسلامية » ص 13-14 .

(3) Fabliau .

(4) Renard .

(5) عبد القادر اليوسف ، العصور الوسطى الأوروبية ، ص 227 .

ومن الطريف أن بعض الصليبيين كانوا يعتقدون مجالس أنس
 بروون فيها قصصاً عربية للقادمين من أوروبا، ومن هؤلاء جاك
 دي فيتري⁽¹⁾ أسقف عكا الذي حكى مقتطفات من «ألف ليلة
 وليلة» لبعض الصليبيين الذين وفدوا إلى الشام وقد قاموا بعد
 عودتهم إلى بلادهم بقصصها على أصحابهم. ونشرت هذه
 الأقسام ضمن مجموعة قصصية بعنوان «أعمال الرومان»⁽²⁾
 في القرن الرابع عشر⁽³⁾ ومن خلالها ظهرت في أوروبا قصص
 مماثلة من أشهرها «الديكاميرون»⁽⁴⁾ أي قصص الأيام العشرة التي
 كتبها في القرن نفسه الأديب الإيطالي جيو فاني بوكاشيو⁽⁵⁾ الذي
 كان له بدوره أثر على جيو فري تشوسر⁽⁶⁾ الأديب الإنجليزي⁽⁷⁾.

* * *

- (1) Jacques de Vitry (1170-1240) واعظ ومؤرخ فرنسي، قدم مع الحملة الصليبية
 الخامسة، أصبح رئيس أساقفة عكا.
 (2) Gesta Romanorum
 (3) محمد سمير عبد الحميد «الحركة الرومانتيكية» ص 574.
 (4) Décaméron
 (5) Giovanni Boccaccio (1313-1375).
 (6) Geoffrey Chaucer (1342-1400).
 (7) انظر قليب حني، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ج 2 ص 251.

تدوين التاريخ :

رافق الحملات الصليبية مؤرخون من مختلف بلدان الغرب الأوروبي كان معظمهم من الفرنجة ألقوا كتباً ومذكرات سجلوا فيها أحداث هذه الحملات مع بعض المشاهدات والانطباعات الخاصة والمغامرات التي جمعت بين الواقع والخيال، وتضمن بعضها كثيراً من القصص والأشعار وكانت هذه الكتب خطأ سار عليه المؤرخون الأوروبيون الذين كتبوا عن الحروب الصليبية وغيرها من الوقائع التاريخية، الأمر الذي أدى إلى ظهور حركة في أوروبا لتدوين التاريخ على نحو لم يسبق له مثيل. ومن أقدم ما وصل إليها من هذه التواريخ المعاصرة للحملات الصليبية كتاب لمؤرخ مجهول يحتمل أن يكون نورمانياً من شبه جزيرة إيطاليا⁽¹⁾ وقد رافق هذا المؤرخ الحملة الأولى وسجل حوادثها في كتابه «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس»⁽²⁾ الذي أكمله مجهول آخر إلى عام (1107) في كتاب بعنوان «تاريخ حجاج أورشليم»⁽³⁾.

(1) Groeber P. 390

انظر أيضاً المؤلف للمجهول «أعمال الفرنجة» : المقدمة ص 10-11.

(2) Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum (2)

(3) Groeber P. 310

ومن المؤرخين الفرنجة الأوائل الذين كتبوا عن الحملات فوشيه دي شارتر الذي اشترك في الحملة الأولى وشاهد احتلال نيقية ثم اتجه مع بلدوين إلى الرها وأصبح نيسباً ملحقاً بقصره. وبعد أن عين بلدوين ملكاً على بيت المقدس انتقل معه إلى القدس ولازمه حتى وفاته سنة (1118) ميلادية⁽¹⁾ وكتابه «أعمال الفرنجة الحاجين إلى بيت المقدس»⁽²⁾، يتحدث عن الفترة الواقعة بين عامي (1095) (1127) ويختصر الحوادث التي جرت من سنة (1100) إلى سنة (1120) وهذا الكتاب حافل بمعلومات عن معالم فلسطين. وقد نقل عنه مؤرخ مجهول مع إضافات في كتابه «أعمال الفرنجة المحاربين»⁽³⁾ بدءاً بعام (1095) وختمه بعام (1106). كما قام مؤلف آخر بالنقل منه في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ أورشليم»⁽⁴⁾ الذي غطى الفترة من عام (1100) إلى عام (1124) ويحتمل أن يكون مؤلفه ليزيارد دو نور⁽⁵⁾ وهناك مجهول اعتمد على معلومات من فوشيه في كتاب عنوانه «تاريخ بلدوين الثالث»⁽⁶⁾ وهو يقتصر على

(1) جوزيف نيسيم يوسف، العرب والروم والثلاثين، ص 7 - 8.

(2) Gesta Francorum Iherusalem Peregrinatum.

(3) Gesta Francorum expugnatium Iherusalem.

(4) Historiae Iherosolymitane.

(5) Lisiard de Tours.

(6) Historia Balduini III.

الحوادث الجارية بين سنتي (1095) و (1123)⁽¹⁾ .

وأيضاً من المؤرخين الفرنجة ريمون داجيلي⁽²⁾ الذي عاصر الحملة الأولى وعاش حوادنها برفقة ريمون كونت تولوز⁽³⁾ وألف عنها كتاباً مع زميل له يدعى بونس دي بلازوك⁽⁴⁾ بعنوان «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس»⁽⁵⁾ ، وبعد أن لقي بونس مصرعه في عام (1099) أتم ريمون الكتاب في فرنسا . تناول هذا الكتاب علاقة ريمون دو تولوز بالإمبراطور البيزنطي انكسيوس كومنين وأشاد بدور سيده الكونت في الحملة ، وادعى أن قصة الرؤيا التي رآها الفلاح بطرس برثولماوس⁽⁶⁾ أثناء حصار كريوغا أمير الموصل لأنطاكية صحيحة⁽⁷⁾ ونسب القصة إلى أن هذا الفلاح أخبر الجنود الصليبيين بأنه رأى في المنام (القديس) أندراوس⁽⁸⁾ الذي كشف له أن الحربة التي اخترقت جنب المسيح مدفونة تحت كنيسة (القديس) بطرس في أنطاكية⁽⁹⁾ . كما ادعى ريمون داجيلي

(1) Groeber P. 310

(2) Raymond d'Aguilers (2)

(3) Raymond de Toulouse (1042-1105 م) .

(4) Pons de Balazuc (4)

(5) Historia Francorum Quiceperum (5)

(6) Pierre Barthélemy . وكان هذا الحدث المزعوم يوم 14 يونيو 1098 م .

(7) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم وأتلاتين» ص 5-7 .

(8) Saint André (8)

(9) انظر رانسيمان « تاريخ الحروب الصليبية » ج 1 ص 361 - 362 .

أن الحربة التي قيل إن الصليبيين عثروا عليها في هذا الموضع هي الحربة التي طعن بها المسيح في جنبه⁽¹⁾ ، وهي الرواية التي زعم مؤلف إنجيل يوحنا أنها حدثت فقد كتب هذا المؤلف أن واحداً من العسكر طعن جنب المسيح بحربة وهو على الصليب حسب عقيدة النصارى⁽²⁾ .

وبمن عاصر الحملة الأولى البرت المعروف بالبرت ديكس - لا شابل (أخن)⁽³⁾ صاحب «مؤرخة أورشليم»⁽⁴⁾ الموسعة التي بدأت حوادثها بسنة (1095) وانتهت بسنة (1120)⁽⁵⁾ ، وتعتبر مصدراً مهماً من مصادر هذه الحملة ، فقد استعان مؤلفها ببعض المراسلات بين الصليبيين وذويهم ، واستمع إلى عدد ممن اشتركوا في الحملة ولم يتحامل كغيره من الصليبيين على الإمبراطور الكسيوس كومنين بل أشاد بمواقفه تجاه الجيش الصليبي الذي مرّ بأراضي الدولة البيزنطية⁽⁶⁾ . أما بفرس توديبود دو سيفريه⁽⁷⁾ فقد ألّف كتاباً عنوانه «الرحلة إلى أورشليم»⁽⁸⁾ روى فيه حوادث الحملة

(1) جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ، ص 7 .

(2) انظر يوحنا 19 : 34 .

(3) Albert d'Aux La Chapelle (Aachen) (3)

(4) Chronicon Hierosolymitanum (4)

(5) Groeher P. 310 (5)

(6) جوزيف نسيم يوسف ، المرجع المذكور ص 11 . 13 .

(7) Pierre Tudebode de Civray (7)

(8) Historia de Hierosolymitana (8)

الأولى من عام (1095) إلى عام (1099)⁽¹⁾ ، ونقل معظم فقراته من مصادر سابقة ، ويحتمل أنه ألفه حوالي عام (1105)⁽²⁾ ومن المؤرخين الفرنجة أيضاً الراهب روبير رئيس دير سان ريمي⁽³⁾ في ريمس بفرنسا الذي صدر ضده قرار الخرماني الكنستي حوالي عام (1096) فاعتكف في دير مارموتيه⁽⁴⁾ وفي هذا الدير دون كتابه «تاريخ بيت المقدس»⁽⁵⁾ وحوادثه من مؤتمر كلير مونت سنة (1095) إلى موقعة عسقلان سنة (1099)⁽⁶⁾ .

أما المؤرخ الفرنسي بودري دي بورجي⁽⁷⁾ كبير أساقفة دول فنه كتاب بعنوان «تاريخ أورشليم والنصارى الذين اشتركوا في الحرب»⁽⁸⁾ حوادثه بين سنتي (1095) و (1099)⁽⁹⁾ . ذكر بودري في مقدمة كتابه أنه انتهى من تأليفه وعمره سنون عاماً ، ويظن بعض المؤرخين أن بداية تأليفه كانت في عام (1107) . والحقيقة أن بودري

(1) Groeber P. 309

(2) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم واللاتين» ص (14) .

(3) Robert des st. Remi ويعرف باسم روبير الراهب مات عام 1122م .

(4) Marmoutier دير على مسافة ثلاثة كيلومترات من تور في فرنسا أسسه القديس مارتن عام 372 م .

(5) Historia Therosolimitana

(6) جوزيف نسيم يوسف ، المرجع السابق ص 14 - 16 .

(7) Baudri de Bourgueil (1047 - 1130) أصبح رئيس أساقفة دون Dol عام 1107م .

(8) Historia Jerusalem queliker ... Cliristaw ... expugner enuk

(9) Groeber P. 310

لم يشترك في الحملة الأولى بل استقى معلوماته من شهود عيان
إشتركوا فيها، واعتمد كثيراً على كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج
بيت المقدس» للمؤرخ المجهول، وقد نقل عن بودري كثير من
المؤرخين مثل وليم الصوري⁽¹⁾.

وهناك مؤرخون فرنجة آخرون كتبوا عن الحملة الأولى من
أشهرهم جيبير دو نوجن⁽²⁾ صاحب كتاب «تاريخ أورشليم»⁽³⁾
الذي يعرف أيضاً بكتاب «أعمال الله من أجل الفرنجة»⁽⁴⁾ وأحداثه
تغطي الفترة بين عامي (1095) و (1104)⁽⁵⁾. وراؤول دو كاين⁽⁶⁾
الذي ذهب إلى الشرق عام (1107) بصحبة تانكريد وبعد عام
(1112) ألف كتابه «أعمال تانكريد»⁽⁷⁾، اعتمد فيه على معلومات
أدلى بها تانكريد نفسه وتحدث عن بداية الحركة الصليبية إلى سنة
(1105). وهذا الكتاب مزيج من الشعر والنثر الذي لم يعن
راؤول بتنقيحه ومراجعته⁽⁸⁾. وجوتيه⁽⁹⁾ الذي عمل مستشاراً

(1) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم واللاتين» ص (16 - 17).

(2) Guibert de Nogent (1130 - 1053).

(3) Historia Hierosolymitana.

(4) Gesta Dei per francos.

(5) Groeber P. 310.

(6) Raoul de Caen (المتوفي عام 1130).

(7) Gesta Tancredi.

(8) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم واللاتين» ص (18 - 19).

(9) Groeber P. 310.

(9) Gauthier le Chancelier.

لروجر أمير أنطاكية وقام بتأليف كتاب «حرب أنطاكية»⁽¹⁾ ركز على الصراع الذي دار بين روجر والسلاجقة عام (١١١٩)⁽²⁾.

ومن المؤرخين الفرنجة الذين تحدثوا عن الحملة الثانية مؤرخ مجهول ألف كتاب «أعمال لويس السابع»⁽³⁾ حوالي عام (1180) تحدث فيه عن الحملة وحوادث أخرى معاصرة وهو على غرار ما كتبه وليم الصوري وكتاب «تاريخ لويس السابع»⁽⁴⁾ الذي يشمل على علاقات فرنسا مع غيرها من البلدان ويقف هذا الكتاب عند سنة (1165) ثم أضيف إليه فيما بعد الحوادث التي جرت بين سنتي (1171) و (1173) وقد اعتمد فيه المؤلف على «سيرة لويس السمين»⁽⁵⁾ أي لويس السادس التي كتبها سوجر مقدم دير سان دوني⁽⁶⁾. ومنهم أيضاً جان دو جوفنيل⁽⁷⁾ الذي صحب الملك لويس التاسع إلى الشرق عام (1248) وقام بكتابة سيرة له عبارة

(1) Historia Antiocheno (1)

(2) Groeber P. 310 (2)

(3) Gesta Ludovici VII (1190-1137)

(4) Historia Ludovicie VII (4)

(5) Vita Ludovici Grossi (1137-1108)

(6) Suger de st. Denis (1137-1108) رئيس دير سان دوني من عام 1122 وحتى

عامه . انظر . Groeber P.310, V.P. 291.

(7) Histoire de Saint-Louis وكتاب Jean de Joinville (1317-1224)

عن مذكرات، وذلك بين عامي 1305 و 1309م⁽¹⁾.

نذكر من المؤرخين الألمان الذين كتبوا عن الحملات الصليبية أكهارت فون أورا⁽²⁾ الذي زار القدس سنة (1101) ودون كتاباً مفصلاً لكتاب «أعمال الفرنجة» اشتمل على وقائع رحلته وعنوانه «أورشليم⁽³⁾ وله أيضاً «المؤرخة⁽⁴⁾ التي روى فيها تاريخ العالم منذ الخليفة إلى سنة (1125)⁽⁵⁾.

وعن الحملة الثانية كتب أوتو أسقف فرايزنج⁽⁶⁾ في مؤرخته المعروفة بتاريخ المدينة، وكان أوتو في الحملة الثانية ثم عاد إلى موطنه في بافاريا⁽⁷⁾ عام (1149)⁽⁸⁾.

وعن الحملة الثالثة كتب تاجينو فون باساو⁽⁹⁾ كتاب «وصف حملة فريدريش الأول الأسبورية»⁽¹⁰⁾ وهو على نمط المذكرات

(1) انظر جوناغيل، (الغديس): حياته وحملاته على مصر والشام.

(2) Ekkehart Von Aura.

(3) Hierosolymat

(4) Chronicon

(5) Groeber P. 311.

(6) Otto Von Freising

(7) Bavaria - Bayern في ألمانيا.

(8) هرنشو «علم التاريخ» ص 6 حاشية 2.

انظر: Groeber P. 304 «الموسوعة العربية» ص 254.

(9) Tageno Von Passau

(10) Description expeditionis uslatice Friderici

اليومية، ذكر فيه ما شاهدته في هذه الحملة ونقع حوادثه من سنة (1189) إلى سنة (1190)⁽¹⁾ وعن الحملة ذاتها كتب أنسبرت البافاري⁽²⁾ كتاباً بعنوان «حملة الامبراطور فريدريش»⁽³⁾. وألف الراهب جونتر فون بايرس⁽⁴⁾ من الألزاس كتاباً عن احتلال مدينة القسطنطينية⁽⁵⁾ تحت قيادة بودوان دو فلاندر⁽⁶⁾ يبدأ بسنة (1205)⁽⁷⁾. ومن المؤرخين الألمان أوليفيه فون كولن (كولونيا)⁽⁸⁾ الذي ألف كتاب «تاريخ ملوك الأرض المقدسة»⁽⁹⁾ عرض فيه ما جرى من حوادث بين سنتي (1096) و (1213). وقد أخفه بكتاب مُفصّل بعنوان «تاريخ دمياط»⁽¹⁰⁾ يشمل الحوادث من عام (1217) إلى عام (1222)⁽¹¹⁾.

وعن مشاركة أهالي منطقة الرأين صنّف مجهول من المنطقة

(1) Groeber P. 311.

(2) Ansbert Von Bayern.

(3) Expeditio Friderici imperatoris نظر: Groeber P.311

(4) Gunther Von pairis.

(5) De expugnatione Urbis constantinopolis

(6) Baudouin de Flandre (1171 - 1205) وهو أول الملوك الصليبيين في القسطنطينية.

(7) Groeber P. 312.

(8) Olivier Von Keeln

(9) Historia reyum terrae sanctae

(10) Historia Damialana

(11) Groeber P. 312

كتاباً بعنوان «أعمال صليبيي الراين»⁽¹⁾ تطرق فيه للرحلة البحرية إلى دمياط والاستيلاء عليها وحوادثه من سنة (1217) إلى سنة (1219)⁽²⁾ . وعن رحلة الفريزيين البحرية إلى الشرق ألف مجهول آخر كتاباً⁽³⁾ افنصر على حوادث عامي (1217) و(1218)⁽⁴⁾ .

أما عن المؤرخين الإيطاليين فنذكر منهم كافارو الجنوبي⁽⁵⁾ الذي قدم إلى فلسطين عام (1100) وتورد عليها عدة مرات⁽⁶⁾ ، وهو صاحب «حوليّات جنوة»⁽⁷⁾ التي تشتمل على حوادث الفترة بين عامي 1099 و 1163 وهي سنة وفاته، وله كتيب عرضاً بعنوان «تحرير مدن الشرق»⁽⁸⁾ ألفه في عام (1155) وتجرى حوادثه من عام (1085) إلى عام (1109) ويتناول الوقائع من رحلة الحج التي قام

(1) . Gesta crucifigorum Rhenanorum

. Groeber P. 312 (2)

. Deltinere frisonum (3)

. Groeber P. 312 (4)

. Cafarus (Caffaro) (5)

(6) جوزيف سيم يوسف، العرب والروم واللاتين، ص 19 .

(7) Annales de Genova هذه الحوليّات أكملها المستشار أوبرت Oberl إلى سنة

1173 م، واثوبونسي Otobonus إلى سنة 1186 م، واجريروس بانيس Ogerius

Paris إلى سنة 1186 م، ومركيزيوس Marchisus إلى سنة 1224 م،

وبرثولماوس Bartholomæus بفاصيل كثيرة إلى سنة 1224 . وقد انتهت الحوليّات

بقلم ياكوب أوربا Jacob Auria إلى سنة 1294 م . (Groeber P.295) .

. Liberation civitatum orientis (8)

بها روبرت دو فلاندر إلى الاستيلاء على طرابلس والحقيقة أن هذا الكتاب لا يعرض إلا الوقائع الهامة وقد كتب له ياكوب أوربا تكملة⁽¹⁾ . ومنهم أيضاً جيوفاني دي توليبيا⁽²⁾ من شمال إيطاليا في كتابه الذي ألفه عن يوحنا ملك بيت المقدس⁽³⁾ وهو يوحنا (جان) الذي كان كونت بريين⁽⁴⁾ قبل توليه الملك⁽⁵⁾ .

ومن المؤرخين الإنجليز الذين عثوا بالحملة الصليبية وعاصروها ريتشارد أوف لندن⁽⁶⁾ صاحب كتاب «رحلة الحجّاج»⁽⁷⁾ (حجّاج بيت المقدس) وحوادثه من عام (1187) إلى عام (1193) . وقد اشترك ريتشارد في الحملة الثالثة، ويمثّل كتابه عرضاً مشيراً للدور الإنجليزي في هذه الحملة، ويشتمل على عدد من الأعلام⁽⁸⁾ . ورادولف مقدم دير جورجشال⁽⁹⁾ الذي ألف كتاباً

(1) Groeber P. 312 . انظر أيضاً جوزيف نيم بومف، العرب والروم واللاتين، ص 19 .

(2) Giovanni di Tulbia (2)

(3) De Johan rege Jerusalem (3)

(4) Jean de Brienne (1148-1237) ملك بيت المقدس (1210-1225) .

(5) Encycl. Brit-Micropædia Vol. V. P. 582-583 (5)

(6) Richard of London (6)

(7) Itinerarium Peregrinantium (7)

(8) Groeber P. 312 (8)

(9) Radulf Of Goggeshall (9)

عنوانه «الامتيلاء على الأرض المقدسة»⁽¹⁾ وضح فيه دوافع الحملة الثالثة، وغطى الفترة الممتدة من سنة (1187) إلى سنة (1191)⁽²⁾. وكذلك راهب دير سان ألبان مانيوباريس⁽³⁾ الذي اشتهر بكتابه الموسع عن إنجلترا المعروف بتاريخ إنجلترا الأكبر أو «المؤرخة الكبرى»⁽⁴⁾ وقد اهتم فيه بتسجيل أخبار الشرق والغرب⁽⁵⁾.

وفي فلسطين اشتغل بعض رجال الكنيسة في تدوين التاريخ مثل وليم الصوري الذي عين كبيراً لأساقفة صور سنة (1175) والذي ستحدث عنه فيما بعد، وجاك دو فيتري الذي عين أسقفاً لعكا سنة (1216) وسار على نهج وليم الصوري وألف كتابه «تاريخ الشرق»⁽⁶⁾ ضمنه تاريخ الأرض المقدسة منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى سنة (1218) كما تضمن أحوال الغرب الأوروبي من عام (1220) إلى عام (1240)⁽⁷⁾ وقد استفاد في تأليفه من العرض الشامل الذي ورد في كتاب «تاريخ ملوك

(1) Expugnatio terrae Sanctae

(2) Groeber P. 312

(3) St. Alban راهب دير Matthew Paris

(4) Historia Angliæ maior (chronicon Maior)

انظر: Groeber P. 316

(5) هرتشو، علم التاريخ، ص 46 حاشية 3.

(6) Historia Orientalis

(7) Groeber P. 311

الأرض المقدسة» لمؤلفه أوليفيه فون كولن (كوتونيا). ومنهم أيضاً
وليم الطرابلسي الذي كان أسقفاً لطرابلس عام (1250) ثم نبيت
لحم عام (1263)، وكان يعرف اللغة العربية معرفة جيدة، وكان
مطلعاً على القرآن الكريم والحديث الشريف، واستطاع بهذه
الثقافة أن يكتب مقالة عن أحوال المسلمين⁽¹⁾، «حالة
الشرقيين»⁽²⁾.

وإلى جانب هؤلاء المؤرخين هناك عدد كبير من الرحالة الذين
قدموا إلى الشام لزيارة الأماكن المقدسة ودونوا مذكراتهم التي
أثروا بها المكتبات الأوروبية. من أوائل هؤلاء الرحالة الحاج
الإسكندنافي سولف⁽³⁾ الذي جاء إلى الديار الشامية أواخر عام
(1102) وقد اهتم في كتاباته بالأماكن المقدسة لدى النصاري،
ووصف كنيسة القيامة، وكان كثيراً ما يتحامل على المسلمين⁽⁴⁾.
وفي حوالي عام (1106) زار فلسطين الرحالة الروسي دانيال⁽⁵⁾ من
كييف الذي يعتبر أقدم كاتب رحلات روسي معروف. وقد
وصف دانيال رحلته إلى فلسطين التي بدأت من القسطنطينية

(1) عمر عبد السلام تدمري، الحياة الثقافية، ص 72.

(2) Guillaume de Tripoli وكتابه Tractatus de statu serrace norum.

(3) Saewulf.

(4) نقولاً زيادة درواد الشرق العربي، ص (81-82، 91).

(5) Daniel من Kiev.

ومنها رحل بمحاذاة ساحل آسيا الصغرى إلى قبرص ثم إلى فلسطين ، وعلى الرغم من الأخطاء الطبوغرافية التي وردت في وصفه إلا أن حديثه عن بيت المقدس الذي مكث فيه ما يزيد عن عام جاء دقيقاً ومفصلاً وقد قام دانيال بثلاث سفرات إلى البحر الميت والخليل ودمشق برفقة بودوان الأول ملك بيت المقدس ، ويوصفه رئيساً لأحد الأديرة الروسية فقد اهتم بأديرة فلسطين فوصف دير سابا القريب من القدس⁽¹⁾ .

وفيما بين عام 1160 وعام 1170 قدم إلى فلسطين راهب ألماني يدعى يوحنا ، قصر اهتمامه على ما يتعلق بالمسيح وحياته والأماكن التي عاش فيها ، واهتم بالنفوس الباقية على الصخور ونقلها⁽²⁾ . وفي عام (1172) جاء إلى فلسطين ألماني آخر هو ثيوديريش⁽³⁾ فوصفها وصفاً عاماً وقسم أرضها إلى أقسام طبيعية ، وألقى باللائمة على الصليبيين لجهلهم بأسماء الأماكن ، وتعرض لثمار البلاد غير أنه ضمن كلامه بعض الأساطير⁽⁴⁾ ، أما الراهب اليوناني فوكاس⁽⁵⁾ الذي وصل إلى بلاد الشام في سنة

(1) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. III P.371 .

انظر نقولا زيادة ، المرجع المذكور ، ص 83 .

(2) نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص 84 - 85 .

(3) Theoderich .

(4) نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص 84 - 85 .

(5) Phocas من كريت .

(1185) فقد كتب وصفاً لمينائي عكا وبيروت، كما كتب وصفاً
لأنطاكية وكنيسة بيت لحم⁽¹⁾.

ونلاحظ أن رحالة القرن الثاني عشر الميلادي لم يبدوا عنايتهم
إلا للمعالم المسيحية، وكانوا شديدي التعصب، فانطوت
مؤلفاتهم على الحقد على المسلمين، أما رحالة القرن الثالث عشر
فقد كانوا نسبياً أوسع أفقاً من سابقهم. ومن أمثلة هؤلاء وليرنند⁽²⁾
الذي زار سوريا عام (1211) ووصف الموانئ السورية
وتنمار⁽³⁾ الذي قدم إلى الشام سنة (1217) ووصف دمشق
وأعجب بجمال طبيعتها. وذكر ما فيها من خيرات وما يتمتع به
أهلها من حرية. وقد أبدى تنمار فهماً للإسلام ونقل موقف
المسلمين من المسيح عليه السلام، وذكر في كتاباته ملخصاً عن
حياة الرسول عليه الصلاة والسلام⁽⁴⁾. وهناك راهب ألماني زار
فلسطين عام (1283). يدعى بركارد⁽⁵⁾ ويعرف ببركارد جبل
صهيون لأنه أقام في دير على هذا الجبل، وقد وصف فلسطين
وقسمها إلى أربعة أقسام، اتخذ من عكا بداية لكل قسم ورسم
لفلسطين خريطة توضح طريقتيه في التقسيم، واهتم بركارد بأماكن

(1) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 88.

(2) Wilbrand Von Oldenbourg.

(3) Theodor وقد زار سيناء، ويفداد.

(4) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 90.

(5) Burchard de Mont-Sion وكتابه Descriptio Terrae Sanctae.

الأستاذة الدكتورة
السيدة سحر عثمان

الأثار التي وردت في الكتاب المقدس عندهم، وكتب عن
الديانات في فلسطين، وتحدث عن المسلمين بإنصاف إلى حد
كبير⁽¹⁾.

الحقيقة أن أكثر ما اهتم به مؤرخو وأدباء الغرب الأوروبي في
العصور الوسطى هو التغني بأمجاد الملوك، والأباطرة، والقادة،
ورجال الكنيسة، هذه الكنيسة المتسلطة التي قيّدت عقول أبناء
المجتمع النصراني، غير أن المؤرخين الصليبيين الذين عاشوا في
الشرق، والمؤرخين الذين وفدوا للزيارة كان لابد أن يتأثروا إن
قليلاً أو كثيراً بمناهج وأساليب المؤرخين والأدباء المسلمين فضلاً
عن الموضوعات الجديدة عليهم، الأمر الذي أدى إلى حدوث
تطور في مفاهيمهم وفي أساليبهم في الكتابة، وكان أكثر ما حدث
من تطور ما طرأ على نظرهم إلى الحياة. فلم يعد في الغالب
يتملكهم التعصب لغرس الروح الصليبية في النفوس والإشادة
بالمعالم النصرانية في الأرض المقدسة كما كان الأمر في بداية
استقرارهم في فلسطين، فقد كان بعض المؤرخين الصليبيين
يقصرون اهتمامهم على وصف المواضع المقدسة لدى النصارى،
كبيت لحم، والناصرية، وكثيراً ما يعتمدون على أقوال العامة التي
تقلب عليها الخرافات والأساطير. ثم أخذت تنفتح لهم آفاق
جديدة من الوعي بأحوال المسلمين ومبادئ الإسلام، فذاقوا.

(1) نقولاً زيادة، المرجع السابق، ص 93-94.

لأول مرة. طعم الحرية وأهمية الكلمة الصادقة، فتغيرت نظرتهم إلى الحياة الإسلامية، وتغلّبت عليهم روح الكتابة الموضوعية الخالية من الأساطير التي كانت تحفل بها مؤلفات الأوروبيين في تلك العصور وخاصة المؤلفات الهجيوغرافية⁽¹⁾ التي تحكي حياة القديسين⁽²⁾.

وحيث أن أغلب المؤرخين المسلمين لم يقتصروا في مؤلفاتهم على سرد الحوادث التاريخية وإنما كانوا يضمنونها معلومات جغرافية فضلاً عن غيرها من المعلومات، هذا بالإضافة إلى الكتب التي تناولت تقويم البلدان⁽³⁾، فقد عرف الأخباريون الذين رافقوا الحملات الصليبية هذا التقليد، فألفوا كتباً على هذا المنوال، واهتموا قدر الإمكان برسم الخرائط التي تحتوي على تفاصيل أكثر للعدن والمواقع. وقد أمدت هذه الخرائط الأوروبيين بتصور أفضل للعالم، وساعدتهم على تحقيق أغراضهم التنصيرية، وكان أكثر الخرائط والكتب الوصفية التي اهتم بها المؤرخون الصليبيون ما تعلق بفلسطين، وهي الكتب والخرائط التي جذبت الكثيرين من نصارى أوروبا إلى زيارة الأرض المقدسة وغيرها من بلدان الشرق⁽⁴⁾.

(1) *hagiographie* وهو الكتاب الذي يتحدث عن الأشياء المقدسة أو القديسين.

(2) انظر أيضاً بيريل سماني، المؤرخون في العصر الوسيط، ص (162-163، 183).

(3) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص 98.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج 2 ص 1279 - 1280.

ومن الأوصاف المطريفة ما كتبه جان دي جوانفيل عن مصر ونهر النيل وإن كان أحياناً يمزج في وصفه الحقيقة بالخيال⁽¹⁾.

ويظهر الفرق بين ما كتبه الصليبيون أثناء الغزو وما كتبه بعد ذلك - من جرأ تأثرهم بمؤلفات المسلمين - يظهر جلياً من المقارنة في الأسلوب التاريخي بين كتاب المؤرخ المجهول «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» وكتاب «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحر»⁽²⁾ لمؤلفه وليم الصوري أما كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» فيحتمل أن مؤلفه كان من عائلة نورماندية استقرت في إيطاليا. ولا نعرف تاريخ تأليفه لهذا الكتاب على وجه التحديد. كل ما نعرفه من خلاله أنه كان معاصراً للحملة الصليبية الأولى وأنه رافق برهيموند قائد الفرقة النصقلية في هذه الحملة⁽³⁾ ومن الممكن أن يكون هذا المؤرخ المجهول قد ألف الكتاب بعد سنة (1099) وهي السنة التي تم فيها حصار عسقلان فقد ورد فيه ذكر هذا الحصار. كما أن المؤرخ ايكهارت الذي زار فلسطين عام (1101) ذكر في كتابه «أورشليم» أنه طال كتيباً يحتوي على قصة الحملة الأولى، ولعله كان يقصد بهذا الكتيب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» هذا، وخاصة أننا نجد في كتاب

(1) انظر هذا الوصف في جوانفيل، الفديس لويس من 104 - 105.

(2) Historia Renun in partibus Transmarinis Gestarum.

(3) بيريل سمالي، المرجع السابق من 173.

ايكهارت تشايبها في بعض الحواث التي رواها المؤرخ المجهول فضلاً عن بعض المقنطقات⁽¹⁾.

استهل المؤرخ المجهول كتابه بقوله: «تحقق اليوم ما اعتاد المسيح أن يقوله دائماً لاتباعه مصداقاً لما جاء في الإنجيل» إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليبتكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني⁽²⁾ مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار غالة، فكان كل ذي قلب ظاهر وروح سليمة، صادق النية في اتباع السيد والسير وراءه مخلصاً في حمله الصليب، لا يتوانى عن المبادرة إلى الضرب المقدس⁽³⁾ ولنا في حاجة إلى التعليق على أن هذا المستهل يظهر فيه بوضوح مدى التعصب الصليبي الذي مهر به المؤلف وصفه للحملة التي كانت في نظره تحقيقاً لقول المسيح عليه السلام، ولم ينس أن يردد الأقوال التي فاه بها البابا أوربان الثاني وهو يدعو الجموع إلى الحرب، هذه الأقوال التي وصفها المؤلف بأنها عظمت غالية استهواه منها ما رده البابا من نصوص العهد الجديد وخاصة مقولة المسيح إنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً⁽⁴⁾ هي مقولة معبرة عما كان يقصد إليه البابا⁽⁵⁾.

(1) انظر حسن حبشي، مقدمة كتاب «أعمال الفرنجة» ص 13 - 14.

(2) انظر متى 24: 16. قارن مرقس 8: 34: «... من أراد أن يأتي ورائي فليبتكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني»، ولوقا 9: 23: «... إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليبتكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني».

(3) المؤرخ المجهول «أعمال الفرنجة» ص 17.

(4) رسالة بولس إلى أهل كوثوسي: 24: 3.

(5) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة ص 17 - 18.

ولم تفارق المؤلف روح التعصب طوال عرضه لأحداث الحملة فكثيراً ما كان يورد فقرات من الكتاب المقدس . وقد سمى جيش الصليبيين جيش المسيح⁽¹⁾ ، وقال عن مات منهم : إنهم ماتوا في سبيل تمجيد اسمه ، وأن أرواحهم هتفت وهي صاعدة إلى السماء بعدد من رؤيا يوحنا اللاهوتي القائل . . . أيها السيد القدوس والحق لا تقض وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض⁽²⁾ . أما المسلمون فبصفهم المؤلف بأن جيشهم جيش وثني⁽³⁾ ملعون محروم من رحمة الرب⁽⁴⁾ ، وأنهم أعداء الرب والمسيحية المقدسة⁽⁵⁾ وأعداء الرب الدنسون⁽⁶⁾ . ومن فراءتنا للكتاب في ترجمته العربية وجدنا أنه كان يختتم فصوله بعبارات وأدعية من نوع العبارات والأدعية التي تقال عادة في القداس ، ويؤرخ بالأعياد الكنسية ، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن المؤلف كان من رجال الكنيسة . ونفترض بيريل سمالي بأن أحد الرهبان كان يملئ عليه أثناء الكتابة⁽⁷⁾ .

(1) انظر المؤرخ المجهول : أعمال الفرنجة ، ص 35 .

(2) رؤيا يوحنا اللاهوتي 6 : 10 .

(3) المؤرخ المجهول : المصدر المذكور ص 37 .

(4) انصتار نفسه ص 40 .

(5) انصتار نفسه ص 42 .

(6) انصتار نفسه ص 87 .

(7) انظر بيريل سمالي «المؤرخون في العصور الوسطى» ص 176 .

أما وليم الصوري صاحب كتاب «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحرة» فهو من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن الحروب الصليبية لأنه ولد ونشأ وعاش حياته الحافلة بالمسؤوليات على الأرض التي دارت عليها هذه الحروب . ولد وليم في فلسطين عام 1130 من أسرة فرنسية استوطنت هناك⁽¹⁾ ، وانخرط في حدائثه في سلك الكنيسة فالتحق بالمعهد الديني لإعداد القساوسة الذي كان يديره الراهب بطرس البرشلوني⁽²⁾ ، وسافر في شبابه إلى فرنسا وإيطاليا ليواصل دراساته العليا في الفلسفة والأهوت والقانون الكنسي والقانون المدني (الروماني)⁽³⁾ وقد أهلتته كل هذه الدراسات لمعرفة اللغتين اليونانية واللاتينية فضلاً عن لغته الفرنسية واللغة العربية التي عرفها منذ نشأته في مسقط رأسه فلسطين . كما فرضت عليه حياته العلمية أن يكون مسلماً باللغتين العبرية والفارسية بعض الإنام⁽⁴⁾ .

بعد أن أنهى وليم دراساته العليا عاد إلى فلسطين سنة (1160) وفي سنة (1167) عين رئيساً لشمامسة صور⁽⁵⁾ . وفي

(1) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. X P.686

(2) عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 182 - 183 .

(3) بيريل سمالي، المرجع المذكور ص 180 .

(4) عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 182 .

(5) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. X P.686

الوقت نفسه التحق بخدمة ملك بيت المقدس عموري الأول⁽¹⁾ الذي أحاطه بالثقة والرعاية واعتمد عليه في الشؤون السيامية والدينية، وأرسله مبعوثاً في مهمات دبلوماسية إلى القسطنطينية حيث اطلع على أحوالها أثناء إقامته فيها، وإلى روما لبحث بعض الأمور المتعلقة بكنيسة بيت المقدس اللاتينية، وهناك عرف عن كسب ما يدور في البلاط البابوي. وفي سنة (1170) عين وليم مربيّاً لبودوان⁽²⁾ بن عموري الذي كان آنذاك في التاسعة من عمره. وفي عام (1174) عندما اعتلى بودوان العرش باسم بودوان الرابع وكان قد بلغ الثالثة عشرة تولى الرضاية عليه ريموند الثالث أمير طرابلس⁽³⁾، وفور اختياره وصياً على المملكة قام بتعيين وليم الصوري مستشاراً للملكة وفي الوقت نفسه كبيراً للشمامسة في الناصرة⁽⁴⁾ وفي شهر يونيو من السنة التالية (1175) عين وليم كبيراً لأساقفة صور. ولما تولى بودوان السلطة في سنة (1179) اختاره مستشاراً خاصاً له⁽⁵⁾. وفي السنة ذاتها سافر وليم إلى روما لحضور مجمع اللاتيران الذي دعا إلى عقده البابا إسكندر

(1) Amurcy I (1163 - 1174) وكان كونت يافا.

(2) Baudouin IV (1174 - 1185).

(3) انظر عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 185 - 186. وقد نفي ريموند

Raymond III de Tripoli معارضة من قبل عدد من القادة الصليبيين وتمهوه

بإخيانة وبخاصة مرقمة حنين حيث هرب من الميدان ومات بعد ذلك بقليل.

(4) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. X P.686 (4)

(5) عمر كمال توفيق، المرجع المذكور، ص 186.

الثالث⁽¹⁾ ، وقد أعجب بشخصيته فكلفه مهمة خاصة متعلقة
بفكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، ولا شك في أن وليم
استفاد من هذه السفرات في توسيع دائرة معارفه⁽²⁾ .

ونتيجة لعلاقاته بالبلاط البابوي أخذ وليم يتطلع إلى تولي
بطريركية بيت المقدس وهي البطريركية التي تعطي رئيسها حق
الإشراف على كنائس فلسطين ، ولما عاد في سنة (1180) وجد
الأوضاع ليست في صالحه ، فقد تدهورت صحة الملك بودوان
الرابع الذي كان مصاباً بمرض الجذام منذ طفولته ، ولما لم يكن له
وريث يخلفه على العرش فقد طمع النبلاء في الحكم وسادت فترة
من الاضطراب⁽³⁾ . وحدث أن توفي أمالريك⁽⁴⁾ بطريرك بيت
المقدس في السادس عشر من أكتوبر من العام نفسه وعُين خلفاً له
هرقليوس⁽⁵⁾ كبير أساقفة قيسارية . ولما ضاعت من وليم هذه
الفرصة قرر أن يعتزل الحياة العامة ، وما لبث أن غادر فلسطين سنة
(1183) متوجهاً إلى روما حيث مكث فيها إلى أن مات عام
(1185)⁽⁶⁾ .

(1) Encyc. Brit. Micropaedia Vol.P.679, X P.686 Alexandre III

(2) عمر كمال توفيق، المرجع المذكور، ص 186 .

(3) Encyc. Brit. Micropaedia Vol.II.P.754, X P.686

(4) Almeric de Limoges (1130-1159) انظر أيضاً عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم
الصوري، ص 187 .

(5) Heraclius (1180-1187) .

(6) عمر كمال توفيق، المرجع السابق ص 187-188 .

كان لحياة وليم العلمية ومناصبه وأسفاره أثر كبير في ثقافته التاريخية . وكان للملك عموري الأول دور مهم في حركة التدوين التي قام بها وليم حيث أتاح له فرصة الاطلاع على المكتبة الملكية وكانت تحوي عدداً من الكتب العربية⁽¹⁾ . يذكر أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» أن ملك «الفرنج» بودوان الثالث⁽²⁾ استولى على مجموعة كتبه الخاصة⁽³⁾ ، ونفترض أن بعض محتويات هذه المجموعة - إن لم تكن جميعها - كانت ضمن الكتب العربية التي كانت في المكتبة الملكية . ولا ريب في أن الكتب العربية التي احتوت عليها هذه المكتبة أمدت وليم بتصور لأسلوب الكتابة العربية ، فضلاً عن المعلومات التي وردت فيها عن الإسلام والمسلمين . والحقيقة أن وليم لم يقتصر على قراءة الكتب العربية بل كان يجالس العلماء المسلمين كي يتروذ منهم بالعلم والرأي في مختلف القضايا والموضوعات التي تناولت حقيقة الحياة الإسلامية ومنتجات المسلمين ، وكان لكل هذا أثر كبير على فكره ونظراته إلى التاريخ الإسلامي والشخصيات الإسلامية ، وهذا ما نجمه على سبيل المثال في وصفه لنور الدين زنكي الذي نعته بالحكمة والفطنة⁽⁴⁾ .

(1) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 190 .

(2) Baudouin III (1143-1163) .

(3) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 34، 35 .

(4) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 192 .

كان الملك عمّوري مغرماً بالتاريخ ومهتماً بتسجيل أعماله وتخليد اسمه ، لذلك أوعز إلى وليم الصوري بتأليف كتاب عنه ، وقد قام وليم بتأليف كتاب وسمّاه «أعمال الملك عمّوري»⁽¹⁾ اعتمد فيه على روايات القادة والجنود الذين رافقوا الملك في حملاته على مصر . وفي هذا الكتاب معلومات عن مصر وسكانها ، ووصف لقصور الفاطميين وميناء الإسكندرية⁽²⁾ وقد استفاد وليم في هذه المعلومات أيضاً من التفاصيل التي أمده بها البارون هوج (هيو)⁽³⁾ أمير فيسارية عن رحلته إلى القاهرة ومفاوضاته مع شيركوه عمّ صلاح الدين⁽⁴⁾ .

ألّف وليم كتاباً عن «أعمال ملوك بيت المقدس»⁽⁵⁾ ، أكمل فيه ما كتبه المؤرخون السابقون ، فبدأ بأحداث سنة (1127) وهي السنة التي انتهى عندها المؤرخ فوشيه دي شارتر ، ووصل وليم بأحداث هذا الكتاب إلى عهد عموري . واعتمد فيه على المصادر القرنجية السابقة⁽⁶⁾ ، كما ألّف كتاباً سمّاه «أعمال الأمراء

(1) Gesta Amabrici Regis (1)

(2) عمر كمال توفيق ، المرجع السابق ، ص 18 - 189 .

(3) Hugues de Césarée (المتوفى عام 1169) .

(4) أنسب الباز المريني ، مؤرخ الحروب الصليبية ، ص 128 - 131 .

(5) Gesta Hierosolymitanorum regum (5)

(6) عمر كمال توفيق ، المرجع السابق ، ص 189 .

الشرقيين»⁽¹⁾ بتكليف من الملك عموري الذي كان يرغب في معرفة المزيد من المعلومات عن حكام انشرف المسلمين، وقد بدأ وليم كلامه بعصر الرسول عليه الصلاة والسلام، غير أن هذا الكتاب ضاع ولم يصل إلينا⁽²⁾.

وفي عام (1182) أدمج كتاب «أعمال ملوك بيت المقدس» وكتاب «أعمال الملك عموري» في مؤلف واحد بعنوان «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحر»، وقد ضمن ونيم هذا المؤلف مقتطفات من كتابه المفقود «أعمال الأمراء الشرقيين» وأضاف إليه معلومات عن تاريخ بيت المقدس منذ استيلاء الفرس عليه في سنة (1614) إلى زمن الحملة الصليبية الأولى، وكتب مقدمة لهذا الكتاب في عام (1184)⁽³⁾ بين فيها منهجه في الكتابة ورأيه في تدوين التاريخ.

تحدثت وليم الصوري في مقدمته عن صعوبة مهمة المؤرخ الذي عليه أن يتحرى الحقيقة فيما يقول أو يكتب رغم ما يجلب عليه هذا النهج من الحقد والكراهية. فلا ينبغي للمؤرخ أن يصمت إزاء ما يحدث حوله بل عليه أن يتبع الحق أينما كان، وقال: إن التفاضل عن ذكر الحقيقة الواقعة للأحداث وإخفاء الأمور عمداً،

(1) Gesta Orientalium Principum (1)

(2) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 190.

(3) صر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 191.

أمر ينافي واجب المؤرخ ، «وذكر أن الذين يزورون التاريخ
ويدسون فيه الأكاذيب ليسوا من طائفة المؤرخين . وذكر أن تشويه
الحقائق والأحداث يعود إلى غموض أسلوب بعض المؤرخين ،
وقلة المعلومات لديهم» وقال «إن تدوين الأفكار الإنسانية دون
القدرة على تنسيقها وعرضها بشكل واضح ، واجتذاب القارئ
بطريقة شائقة ، هو عمل رجل جاهل يسيء إلى الأدب ، ولا يحسن
استغلال وقت فراغه» .

وقال : إن المؤرخ أمام أمرين : إما أن يفضب الكثيرين في
سبيل الحقيقة ، أو أن يلتزم الصمت إزاء ما يجري أمامه بغية كسب
رضا الناس وفي ذلك مخالفة صريحة لأمانة المؤرخ . وذكر أن
عملية التأليف صعبة وشاقة وأنه ما كان ليقبل بمثل هذا العمل لولا
حبه لوطنه وخوفه على إيجازاته من النسيان والاندثار .

لقد اتبع وليم في عرضه للمحادثات الترتيب الزمني ، واعتمد
على كثير من المصادر العربية ، فجاء كتابه حافلاً بالمعلومات
المفيدة . ومع ذلك فقد وصف نفسه وغيره من المؤرخين الصليبيين
بالمرسمين الذين تم يطلعوا بعد على أسرار المهنة ، واتهم نفسه
بعدم الخبرة وهذا بلا شك تواضع من مؤرخ له قيمته في قومه (1) .

(1) انظر مقدمة وليم الصوري :

عمر كمال توفيق ، المرجع السابق ، ص 194 - 200 .

.. وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج 1 ص 49 - 56 .

الفصل الثالث

الأثر العلمي والطبي

نقاط الفصل

اهتمام ملوك المسلمين بالعلم والعلماء - أسئلة الاميراطور فريدريك - وفود طلاب العلم من الشرق إلى أوروبا - مارستانات صلاح الدين في القاهرة والإسكندرية والقدس - مارستان نور الدين في دمشق - مشافي المصابين بالجنون - المشافي المتنقلة - رئيس الأطباء - مجلس الأطباء - طالب الطب - القياس والتجربة - أسئلة الطبيب - البحث عن الدواء - معالجة الجروح والإصابات - أمثلة من أسامة ابن منقذ على مستوى الطب عند الصليبيين - موقف الكنيسة من الطب والأطباء - إقبال الصليبيين على الطب العربي - وفود طلاب أوروبا إلى الشرق - ظهور المشافي في أوروبا - الأطباء الأوروبيون المرافقون للحملات الصليبية - ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في الشرق - كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس الجوسني .

* * *

في مجال العلوم:

زخر الشرق الإسلامي بعلماء في الهندسة والفلك والطبيعيات، ولقد ذكر ابن القمطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»⁽¹⁾ عدداً كبيراً من هؤلاء مما يدل على نهضة علمية في مصر إبان القرنين السادس والسابع الهجريين، وهما القرنان اللذان حدث فيهما الاستقرار الصليبي.

وذكر المقرئزي أن الملك الأيوبي الكامل كان يحب العلم ويذني العلماء، وكان يمتحن العلماء بمسائل غريبة فمن أجاب عليها قرَّبه وأغدق عليه. ومن شدَّة حبه للعلم كان يُعدُّ للعلماء أسيرةً حول سريرته ليسامروه قبل أن ينام في شتى العلوم⁽²⁾. ولما غادر الإمبراطور فريدريك الثاني⁽³⁾ القدس إلى عكا في طريق عودته إلى بلاده سنة ست وعشرين وستمائة (وهي توافق سنة 1228 ميلادية)، بعث إلى الكامل بمسائل أشكلت عليه في الهندسة

(1) ويمكن مراجعة أخبارهم أيضاً في كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلدجول، وكتاب «تاريخ الأطباء والفلاسفة» لإسحاق بن حنين، وقد نشر في مصر بتحقيق فؤاد سيد رحمه الله، وأعدت نشرهما حديثاً مؤسسة الرسالة ببيروت.

(2) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 259.

(3) Friedrich II (1197 - 1250).

والرياضيات، فعرضها الملك على الشيخ علم الدين قيصر⁽¹⁾ الذي كان ضليعاً في العلوم، ثم أرسل جوابها إلى فريديريك⁽²⁾. ومن هذه المسائل التي طرحها الإمبراطور ثلاثة أسئلة: لماذا تبدو الريح والمجاذيف منحنية قليلاً إذا غُمرَ جزء منها في الماء؟ ولماذا يبدو نجم سهيل كبيراً عندما يكون قريباً في الأفق مع أن عدم وجود رطوبة جوية في الصحاري الجنوبية يخرج عامل الرطوبة من أن يكون تعديلاً لذلك الكبير؟ وما سبب ظهور بقع متراقصة أمام أعين أولئك الذي أصيبوا بمرض نزول الماء في أول أعراض هذا الداء أو غيره من عوارض العين⁽³⁾؟

وكان لفريديريك اطلاع واسع على الثقافة العربية، ويمكن الاحترام لعلماء الشرق. وكان على علم بمستواهم العلمي، لذلك فقد كان يرسل إليهم بالأسئلة والاستفسارات في شتى مبادئ العلم⁽⁴⁾. وقد أعجب فريديريك بفلاسفة الشرق وكان يأخذ

(1) قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني الأسفوني، الملقب بتماسيف عالم رياضي ومهندس. ولد في أسفون من صعيد مصر في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، أقام مدة في حماة وخدم صاحبها محموداً، والمظفر وبني له أبراجاً فلنكية، وطاحوناً على نهر العاصي غاية في الدقة، وبني للمظفر أيضاً كرة خشبية رسم عليها الكواكب. تولى نظر الدراوين في القاهرة ومات بدعشق في سنة تسع وأربعين وستمائة (غير الدين التزكلي: الأعلام ج 1 ص 210).

(2) المقرئزي، السلوك، ج 1 ص 232.

(3) ماكس مايرهوف، العلوم والطب، ص 492.

(4) زيفريد هونكه، شمس العرب، ص 438.

بآرائهم الفلكية وبخاصة حول فكرة الخلود⁽¹⁾ . ويحدثنا ابن أبي أصيبعة أن هذا الإمبراطور أرسل مبعوثاً إلى الموصل للمقابلة كمال الدين بن يونس⁽²⁾ ومعه مسائل أشكلت على فريدريك في علم النجوم وغيره ، فكتب كمال الدين جواب هذه الأسئلة كلها وأعطاه رسول الإمبراطور⁽³⁾ . ومن دمشق وصل إلى صقلية مجموعة من علماء النجوم ومعهم جهاز لرصد حركات الكواكب وكان فريدريك قد استفادهم للاستفادة من خبرتهم في هذا المجال⁽⁴⁾ .

لقد كان فريدريك معجباً بحضارة الشرق ، ولا شك أنه كان بمثابة وسيط بين الشرق والغرب بحكم موقع بلاده من جهة . واهتمامه الكبير بالعلوم من جهة أخرى . وعن طريقه تسربت آثار علمية إلى أوروبا . فدوره في نقل علوم الشرق كبير .

وخلال الوجود الصليبي في الشرق كان يفد عدد من طلاب العلم الأوروبيين ليتزودوا بالمعارف الشرقية ، ونذكر من هؤلاء

(1) المرجع نفسه من 452 .

(2) أبو عمران موسى بن يونس بن محمد بن متعة . كان عالماً في العلوم الشرعية ، ومعلماً في مدرسة الموصل . له دراية في الطب والفلسفة ، ظل في الموصل إلى وفاته . من كتبه كتاب الأسرار السلطانية في النجوم (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ص 410 ، 412) .

(3) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ص 410-411 .

(4) زيفريد هوتكه المرجع السابق ص 428 .

أدالارد أوف بات الذي زار مصر والقدس وأنطاكية في سنة (1104) ميلادية، واستفاد من علماء المسلمين في الفلك والرياضيات، وبعد عودته إلى إنجلترا حينَ مُعلماً للأمير هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني⁽¹⁾. واشتهر أدالارد باختباره سرعة الضوء والصوت. وقد عدَّ نفسه تلميذاً لعلماء العرب وتحسَّس لمذهبهم العلمي وفضَّله على مذهب الفريجة. وفي كتابه «المسائل الطبيعية» الذي ألفه في سنة عام (1130) قال وهو يحاور أخاه خريج الجامعات الفريجية: «إنني وقائدي هو العقل. قد تعلمت من أساتذتي العرب غير الذي تعلمته أنت، فبهرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت في عنقك نجماً تقاد به قياد الإنسان الحيوانات الضارية ولا تدري لماذا؟ ولا إلى أين؟ فقد منح الإنسان العقل لكي يفصل به بين الحق وبين الباطل. فعلينا بالعقل أولاً فإذا اهتدينا إليه - لا قبل ذلك - بحثنا في السلطة، فإن سابت العقل قبلناها وإلا لا»⁽²⁾ وقد كتبت أدالارد عدة مؤلفات في الفلك، والرياضيات، والإسطرلاب، والقنص بالبنار، والعلوم عند العرب، وقد ساهم في نشر هذه العلوم في أوروبا⁽³⁾.

(1) Henry II (1154 - 1189).

(2) بحسب العقبي، المشرقون، ج 1 ص 111.

(3) المرجع السابق ص 112.

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي قدم إلى مصر والشام ليوناردو فيبوناتشي⁽¹⁾ وأصله من بيزا إلا أنه عاش مع والده في الجزائر فتعلم العربية ثم سافر إلى الشرق الإسلامي حيث أتقن الرياضيات، وألف في سنة (1202) ميلادية، كتاب «العدد»⁽²⁾، وهو أول كتاب يعرض الأرقام العربية والطريقة العشرية والصفير في أوروبا⁽³⁾ وقد بين ليوناردو كيف أن الرموز العشرة تسهل العمليات الحسابية وتوسع من إمكانية تطبيقها⁽⁴⁾. وفي عام (1220) ألف كتاباً في الهندسة التطبيقية، وقد استخدم الجبر في حلّ النظريات الهندسية، وهذه الطريقة لم تكن معروفة من قبل في أوروبا. كما كتب ليوناردو في سنة (1225) رسالتين لفرديريك الثاني في حلّ معادلات الدرجة الأولى والثانية⁽⁵⁾. وهذه المؤلفات التي نشرها ليوناردو في أوروبا نتيجة علمية لتطوافه في الشرق واتصاله بعلمائه وإطلاعهم على الكتب العربية.

وفي عام (1247) عثر فيليب الطرابلسي على مخطوطة عربية

(1) Leonardo Fibonacci (1170 - 1250).

(2) Liber Abaci.

(3) نجيب العقيقي، المرجع السابق، ج 1، ص 117.

(4) مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية، ص 129.

(5) نجيب العقيقي، المرجع السابق، ص 117.

هي « سر الأسرار » وهو عنوان كتاب منسوب لأرسطو⁽¹⁾ فترجمها إلى اللاتينية، فكانت أكثر كتب العصور الوسطى المتأخرة انتشاراً⁽²⁾ . وهذه أمثلة على مساهمة الشرق العلمية في النهضة الأوروبية .

في مجال الطب :

كان الشرق في عصر الحروب الصليبية حافلاً بالمؤسسات الطبية الراقية . ففي القاهرة نجد المارستان الذي أقامه صلاح الدين الأيوبي في قصر من قصور الفاطميين وعين عليه مسئولاً من الأطباء مهمته الإشراف على المستشفى وتوجيه المرضين للخدمة المرضى ، وجعل من اختصاصه أيضاً المحافظة على الصيدلية وتنظيم صرف الأدوية منها . وكان المرضون يلاحظون المرضى صباحاً ومساءً ، وينظفون الأسرة والأغطية ، ويحضرون الأغذية والأدوية في مواعيدها المحددة⁽³⁾ ، وقد بلغ عدد المراجعين من

(1) هو أرسطو طائيس بن نيقوماخس . ولد في أسطاغيرا في بلاد البلقان ، ولما بلغ ثماني سنوات جاءه أبوه إلى أثينا حيث تعلم النحو والبلاغة تسع سنين . ثم لازم أفلاطون وتعلم منه الفلسفة . وكان أفلاطون يقول لتلاميذه إذا طلبوا منه النيه بالخذيث (حتى يحصر العمل) يعني أرسطو أنشأ أرسطو مدرسة المشافين وكان من تلاميذه الإسكندر المقدوني ، له كتب كثيرة في الفلسفة والطبيبات . (انظر ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ص 6 - 91) .

(2) فيليب حتي ، تاريخ العرب جدا ص 785 .

(3) ابن جبير ، الرحلة ، ص 52 .

المرضى لهذا المستشفى في اليوم الواحد حوالي أربعة آلاف شخص، وهذا العدد الكبير يدل على معة المبني، وكثرة الأطباء، وتوافر الدواء، ويدل أيضاً على الوعي الصحي لدى الناس الذين وجدوا في هذا المرفق ملجأً ضد المرض. أما المرضى الذين تقتضي أحوالهم الصحية البقاء في المستشفى فقد كانوا يُنومون على أسرة ويعتني بهم أطباء وممرضون ولا يؤذن للمريض بالخروج إلا إذا قرر الطبيب ذلك، وقبل أن يغادر المريض سريره يُعطى كسوة وأدوية ونفقة تؤمن له الغذاء اللازم لصحته في فترة نقاهته وراحته في المنزل⁽¹⁾، وقد خصّصت في المستشفى أقسام للنساء فيها جميع الإمكانيات المتوافرة في أقسام الرجال⁽²⁾.

وفي الإسكندرية اهتم صلاح الدين بأمر الطلبة المغتربين، فبنى لهم حمامات للمحافظة على نظافة أبدانهم، وأجرى لهم إعاشة من الغذاء الكافي، كما بنى لهم مستشفى، وكان إذا تعذر على الطالب الذهاب إلى هذا المستشفى ذهب إليه الممرضون ثم عادوا ووصفوا حالته للطبيب فيقرر له الدواء المناسب⁽³⁾.

وفضلاً عن هذا المارستان كان يوجد في القاهرة مارستان آخر أنشأ المنصور فلاوون وافتتحه في سنة اثنتين وثمانين وست مئة

(1) البلوي، تاج الفرق، ص 219.

(2) ابن جبير، الرحلة، ص 52.

(3) المصدر نفسه ص 46.

(وهي توافق سنة 1283 ميلادية). وقد ذكرت المصادر أن افتتاحه للمارستان كان في حفل بهيج. وهذا يدل على مدى اهتمام فلاوون بمثل هذه المؤسسة العلاجية، وتقديره لضرورتها لشعب مصر⁽¹⁾. وقد أنشئ هذا المارستان في الدار القطبية وهي من قصور الفاطميين. وبنى فلاوون مدرسة في جواره. وفي حفل الافتتاح طلب فلاوون من المحيطين به أن بناولوه قدحاً من الأشرية الطبية، وأعلن على الملأ قائلاً: «وقفت هذا المارستان على مثلي فعمدوني من أصناف الخلق»⁽²⁾. ومعنى هذا أنه أراد أن يكون العلاج مجانياً لكل مريض لا فرق بين فقير وغني. وقد بلغ من اهتمام فلاوون بهذا المارستان أن خصص له ميزانية سنوية قدرها أربعون ألف مثقال ذهب، منها أربعة آلاف للرواتب والصيانة، والباقي مصاريف بمعدل مثقال كل يوم⁽³⁾.

هذا في مصر أما في الشام فقد اتخذ صلاح الدين من الكنيسة المجاورة لكنيسة القيامة في القدس مارستاناً وجعل له أوقافاً، وأمدّه بالعقاقير⁽⁴⁾. وكان من أطباء هذا المارستان المشهورين

(1) انظر ابن خلدون تاريخه ج 5 ص 403.

(2) المصدر نفسه.

(3) البغدادي، زبدة كشف المالك، ص 39.

(4) العليسي، الأوس الجليل، ج 1 ص 291.

موفق الدين يعقوب بن سقلاب⁽¹⁾ الذي كان شديد الملاحظة ،
وحريصاً على امتقضاء أحوال المرضى ، فكان يتفقد أعراض
المرض ويدقق في سؤال المريض عن كل ما يشعر به من آلام ،
ليشخص الداء ويصف الدواء⁽²⁾ .

وفي دمشق بنى نور الدين زنكي مازستاناً أوقفه على مرضى
الفقراء والأغنياء⁽³⁾ . وعين أبا المجد ابن أبي الحكم مشرفاً عليه⁽⁴⁾ ،
وهو طبيب بارع كان يتفقد المرضى ويكتب لهم ما يحتاجونه من
أدوية ليقوم المرضى بصرفها لهم على الفور ، وكان من عادته أن
يتوجه إلى المكتبة الطبية ليمضي فيها نحو ثلاث ساعات ، ثم
يذهب إلى منزله⁽⁵⁾ . وكانت إعامته المرضي تحتوي على أغذية

(1) طبيب نصراني ولد في القدس ، وتعلم على يد فيلسوف راهب كان خبيراً
بالتطعيمات والهندسة والحساب . واجتمع ابن سقلاب وهو في القدس بالشيخ أبي
متصور النصراني الطبيب واشتغل بالطب تحت إشرافه . كان أعلم أهل زمانه
يكتب جانينوس وكان ملتزماً بقوانينه في الطب ، وكان معروفاً عنه الدقة في
العلاج . وله كتاب باللغة اللاتينية . توفي في شهر ربيع الآخر من سنة خمس
وعشرين وستمائة (انظر ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء من 699 - 697) .

(2) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص 69 .

(3) أبو شامة «الروضتين» ج 1 ص 9 .

(4) أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم عبيد الله بن المغفر ابن عبد الله الباهلي ؛
طبيب ، عالم بالهندسة والنجوم والموسيقى ، له اهتمام بصناعة آلات الطرب ،
أتدلسي الأصل ، سكن دمشق ومات فيها في سنة سبعين وخمسمائة (خير الدين
الزركلي ، الأعلام ج 6 ص 260) .

(5) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ص 628 .

جيدة من اللحوم والفواكه والأشربة قد لا تتوافر للمريض خارج المستشفى .

ويخبرنا الظاهري بحادثة طريفة حدثت في مارستان دمشق هذا، فيروى أن طبيباً اكتشف أثناء تفقده المرضى رجلاً يدعى المرض، فكتب له ورقة قال فيها: «إن النضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام»⁽¹⁾.

ولم يغفل المسنون أمر الصايين بالجنون فقد أقاموا لهم في أماكن ملحقة بالمستشفى مقاصير لها شبابيك من حديد، وخصصوا فريقاً من المرضين المدربين على معاملة هذا النوع من المرضى⁽²⁾. وكان لكل مجنون اثنان من هؤلاء المرضين مهمتهما القيام بتنظيفه بالماء كل صباح، وإلباسه ثياباً نظيفة، ثم بذهبان به لأداء الصلاة، وسماع آيات من القرآن الكريم، ثم يناح له فرصة التنزه مع أقرانه في الحديقة⁽³⁾.

وقد عرف الشرق نوعاً آخر من المشافي ينتقل مع الجنود أثناء المعارك.

(1) الظاهري «زهلة كشف المعانك» ص 44 - 45.

(2) ابن جبير «الرحلة» ص 52.

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ص 29.

يخبرنا المقرئزي أنه خلال المعركة التي وقعت بين المسلمين
وانفرت سنة أربع وستين وسثمائة (وهي توافق 1265 ميلادية) جهز
الظاهر بيبرس خيمة فيها أطباء وجرأحون وأدوية لإسعاف من
يصاب من الجنود⁽¹⁾.

أما عن النظام الطبي فقد كان منصب رئيس الأطباء لا يتولاه
إلا طبيب حاذق مُعترفٌ به بالعلم والخبرة. وقد يستمر في منصبه
مدى حياته كما حدث للشيخ السديد⁽²⁾ الذي كان عالماً بالطب
متقناً للعلاج، وكانت وصفاته الطبية معمرلاً بها لدى الأطباء.

وبقي الشيخ في هذه المنزلة إلى أن توفي طاعناً بالسن سنة
اثنين وتسعين وخمسمائة في القاهرة⁽³⁾. وكان السلطان هو الذي
يعين رئيس الأطباء. فيخبرنا ابن أبي أصيبعة أن مهذب الدين

(1) المقرئزي «اللوكة» ج 1 ص 516.

(2) الشيخ السديد، هو أبو المتصور شرف الدين بن سعيد عبد الله بن علي بن داود بن
البارك، غلب عليه لقب أبيه فعرف بالشيخ السديد. وكان رئيس الأطباء في الديار
المصرية، خدم خمسة من الخلفاء الناطميين، أولهم الأمر بأحكام الله، وآخرهم
العاقد. ثم خدم صلاح الدين الأيوبي مدة مقامه في القاهرة. عاش عمراً طويلاً
وجمع ثروة كبيرة. وهو من بيت علم بالطب وكان أبوه طبيباً لئخلفنا، قبله (ابن
العماد الخليلي؛ شذرات الذهب 6 / 506 تحقيق محمود الأرناؤوط، وخير الدين
الزركني، الأعلام ج 4 ص 185).

(3) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص 574.

عبد الرحيم بن عني⁽¹⁾ ، كان أكبر الأطباء سناً ، عُيِّنَ من قِبل الملك المعادل رئيساً لأطباء مصر والشام . وكان من عادة مهذب الذين أن يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي إليه من المرضى وصفات طبية تصرف من صيدلية المارستان⁽²⁾ . ومن الصفات التي يجب أن تتوفر فيمن يعين رئيساً للأطباء أن يكون أميناً ذا تجربة وخبرة ، وكان عليه أن يحلف أن لا يجيز لهنة الطب إلا من كان ضالماً فيها ، وأن يؤكد على الأطباء ألا يفشوا أسرار المرضى ، ولا يمنح الطبيب رخصة لمزاولة الطب إلا إذا كانت لديه معدات طبية كاملة إمعاناً في ضمان المعالجة بطريقة أفضل⁽³⁾ .

هذا وكان للأطباء مجلس عام يعقد في منزل واحد منهم وهو بمثابة ندوة يتبادلون فيها الآراء ، ويطلعون على ما استجد من الأمور في مجال الطب . وكان من أشهر هذه المجالس مجلس

(1) مهذب الدين أبو محمد عبد الرحيم بن عني بن حامد ويعرف بالخدخوار حاهر في صناعة الطب . قربه المنوك وأغدقوا عليه ، وقف داره في دمشق وجعلها مدرسة للطب ، وقف لها ضياعاً كثيرة ، من كتبه اختصار كتاب الخاوي في الطب الرازي ، «مقالة في الاستفراغ» و«كتاب الجنية في الطب» تولى في دمشق سنة ثمان وعشرين وستمائة ودفن بجبل قاسيون ابن أبي أصيبعة ، عيون الأتباء ص 628 ، 733 ، 735 وابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب 7 / 224 .

(2) ابن أبي أصيبعة «عيون الأتباء» ص 731 - 732 .

(3) انظر ابن بسام «المحتسب» «نهاية الرتبة» ص 108 - 109 .

الطبيب المعروف أبي العشائر هبة الله بن جميع⁽¹⁾ ، الذي خدم صلاح الدين الأيوبي . وكان أبو العشائر دقيق الملاحظة يروى عنه أن أناماً مروا أمامه يحملون ميتاً ، فصاح بهم وطلب منهم إعادة الميت إلى بيته وأمرهم بترع كفته ووضعها في الحمام ، ثم صب عليه ماءً حاراً ورش جلده بدواء عطسه فبدأت منه حركة خفيفة ، فقال لهم أبشروا بشفائه . وقد سأله الناس كيف عرف أن الرجل لم يميت فقال إنني نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى تكون منبسطة⁽²⁾ . وهذه الحادثة تبين شدة ملاحظة هذا الطبيب .

وكان من المتبع في دراسة الطب أن يقرأ الطالب عدداً من الكتب الطبية المشهورة في حضرة أستاذه كي يشرح له ما قد يغمض عليه ، ويصوب ما قد يخطئ في فهمه ، حتى إذا انتهى الطالب من هذه المرحلة النظرية بدأ في المرحلة العملية ، فيقوم بمرافقة أستاذه لمشاهدة الهياكل العظمية ، والاستماع إلى شرحه على الطبيعة ليتعرف على وظائف العظام وأشكال المفاصل وبذلك

(1) الموفق شمس الرئاسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن افراتيم بن يعقوب بن إسماعيل ابن جميع الإسرائيلي ، عالم مشهور ، كثير الاجتهاد في صناعة الطب ، حسن المعالجة ، ولد ونشأ في فسطاط مصر وخدم صلاح الدين ورتب له الترياق الكبير الفاروق ، من كتبه كتاب الإرشاد لمصالح الأئمنس والأجساد وكتاب «التصريح بالكتون في تنقيح القانون» (ابن أبي أصيبعة ، هيون الأنباء ص 576 ، 579).

(2) ابن أبي أصيبعة «هيون الأنباء» ص 577.

يسهل عليه فهم الكتب التي درسها في التشريح⁽¹⁾ . كما يلزم الطالب أستاذه وهو يعالج المرضى لكي يجمع بين النظرية والتطبيق⁽²⁾ .

وكان القياس والتجربة هما محور الصناعة الطبية . ويحسن بنا في هذا المقام أن نستشهد بقول للطبيب المسلم أبي الحسن رشيد الدين علي بن خليفة⁽³⁾ الذي قال : «الأمراض لها أعمار والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدس وتخمين، وقلما يقع منه اليقين، وجزأها القياس والتجربة، لا السفسطة وحب الغلبة، وتبجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة، وردّها إذا كانت مفقودة؛ وفيهما يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر وبتعمير العاقل عن الجاهل، والمجد في الطلب عن المتكاسل والعَمَل بمقتضى القياس والتجربة عن المحتال على اقتناء

(1) انظر البغدادي، الإفادة والاعتبار، ص 1 .

(2) علي بن العباس، كامل الصناعة، ج 1 ص 9 .

(3) علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري، طبيب وموسيقي عارف للأدب . وهو عمّ ابن أبي أصيبعة (أحمد بن اتقاسم) صاحب طبقات الأطباء . ولد بحلب سنة تسع وستين وخمسمائة، وانتقل إلى القاهرة ثم سكن دمشق واستدعاه الملك الأمجد صاحب بعلبك وأطلق له جراية وراثياً . وتوفي في دمشق سنة ست عشرة وستمائة . من كتبه «الموجز المفيد» و«كتاب المساحة»، «طب السوق»، «رسالة في النبض وموازنته للحركات الموسيقية» .
(نحير الدين المزركلي، الأعلام ج 25 ص 25) .

الملك وعلو المرتبة⁽¹⁾ .

وغالباً ما كان الطبيب يطيل في إلقاء الأسئلة على مريضه قبل الكشف عليه ، ليتبين الظروف التي صاحبته ، وليتعرف على حقيقة الأعراض التي ثعبته في تشخيص المرض تشخيصاً صحيحاً . ويروي أن رجلاً جاء إلى الطبيب يوحنا بن بطلان⁽²⁾ وقد انقطع صوته ، فسأله ابن بطلان عن عمله فأعلمه أنه مغربل . وهنا أدرك الطبيب على الفور أن غبار الغرينة دخل إلى حلقه فتراكم وأعجزه عن الكلام ، فسقاه خلأ حاذقاً⁽³⁾ فانفتح حلقه وتكلم . وكان إلى جوار ابن بطلان بعض التلاميذ وخشي أن يصنفوا هذا الدواء لكل مريض ، فحذروهم وأخبرهم أن هذا العلاج خاص بهذه الحالة⁽⁴⁾ .

(1) ابن أبي أصيبعة «عبرن الأنبياء» ص 743 .

(2) أبو الحسن أفختار بن الحسن بن عبيدون بن بطلان : طبيب حاذق من بغداد . سكن القاهرة في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة وبكث فيها ثلاث سنوات ، ثم سافر إلى القسطنطينية ثم سكن أنطاكية إلى أن مات فيها في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة ، كان مسيحياً وسمي يرنانيس . من كتبه «دعوة الأطباء» و«تفريغ الصحة» ، «عمدة الطبيب في معرفة النبات» ، «مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة» (خير الدين الزركلي ، الأعلام ، ج 1 ص 191) .

(3) أي حامضاً . جاء في «الصحاح» للجوهري (حذق) : «وَحَلَقٌ الحَلُّ يَحْلِقُ يَحْلِقُ حَلْقًا ، أي حمض» .

(4) ابن منقذ ، الاعتبار ص 184 .

وحدّث أنّ أمةً لتُور الدّين زُكّي مرضت وعافت الطّعام ،
 وبعد أنّ فحصها كثير من الأطباء دون أنّ يستدلوا على حقيقة
 مرضها ، عادها الطّيب سُكّرة الحلبي⁽¹⁾ فطلب منها أن تجيبه
 بوضوح على كلّ سؤال يطرحه عليها ليتسنى له معرفة أسباب
 المرض . ولما عرف منها بعض المعلومات عن بلدها ، وما يتناوله
 أهلها من طعام وشراب ، لاحظ أنّها تنوّر إلى طعام بلدها ، فلما
 وصف لها بعضاً من هذا الطّعام أكلت منه وشفّيت⁽²⁾ .

وفي كلّ مستشفى فريق من الأطباء يتولى جمع المواد اللازمة
 لتركيّب الأدوية وتوفيرها في خزائن المستشفى لتكون بمتناول
 المرضى . وكان رشيد الدّين الصّوري⁽³⁾ الذي عمل في مارستان
 القدس ، يجوب جبال الشام ومعه رسّام يصوّر النباتات الطّبية في
 مختلف أطوار نموها . ومن واقع خبرته في هذه النباتات ومعرفة

(1) طيب من يهود حلب ، له معرفة بالملاج ، ودراية بالدواء . كان ذا صلة بنور الدّين محمود بن زكّي ، (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأبناء ص 637) .

(2) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأبناء ، ص 637 - 638 .

(3) أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصّوري ، كان أوحد زمانه في معرفة الأدوية ، ولد في صوّر في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ونشأ بها ، وأقام في القدس عامين يعمل في مارستانها . عظم ذلك العائد ثمّ أبه المعظم ثمّ ابنه الناصر . أقام بدمشق وكان له مجلس للطّب ، حرر أدوية التّرياق الكبير . توفي بدمشق سنة تسع وثلاثين وستمئة (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأبناء ص 699 - 700) .

لها على الطبيعة ألف كتاباً في الأدوية المفردة⁽¹⁾ . وكانت هناك رقابة مشددة على تصنيع الأدوية، وكان من واجبات المحاسب أن يمر كل أسبوع على الصيدلة، وكل شهر على مصانع الأدوية للكشف على العقاقير والتأكد من سلامتها وخلوها من الغش⁽²⁾ .

وعلى الرغم من توافر الأدوية في مخازن المشافي، إلا أن الأطباء المسلمين كانوا يفضلون العلاج بالأغذية.

حدث أن رجلاً شكاً إلى الطبيب رضي الدين الرّحبي⁽³⁾ . شحوباً غلب على لونه، وكان قد شرب أدوية وصفها له أطباء ولم تنفعه، فلما عرف رضي الدين أن هذا الرجل كان يقتصر على أكل الدجاج ولا يأكل لحم الضأن، أحضر له قطعة من الدجاج وأخبره من الضأن ثم قال له: «أنت تلازم أكل لحم الدجاج فلم يأت اندم المتولد منه مشرق الخصرة كما يأتي من لحم الضأن،

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 705 .

(2) الشيزري، نهاية الرتبة، ص 42، 57 .

(3) شرف الدين أبو الحسن علي بن الحسن الرّحبي - ولد بدمشق في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، اشتغل بصناعة الطب على أبيه . خدم في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي في دمشق - تولى التدريس في مدرسة مذهب الدين عبد الرحيم ابن علي - من كتبه «كتاب في خلق الإنسان ومبنة أعضائه ومنفعتيها» ، «حواشي على كتاب القانون لابن سينا» توفي بدمشق في سنة سبع وستين وستمائة ودفن بجبل قاسيون .

(ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 675 - 676 ، 682) .

وأنت ترى لون هذا اللحم من الضأن ومباينته في اللون لهذه القطعة، فينبغي أن تترك أكل لحم الدجاج وتلازم أكل لحم الضأن فإنك تصلح وما تحتاج معه إلى علاج⁽¹⁾.

وإذا كان الألم الذي يشكو منه المريض من جراء جرح في جسده فإن هناك مختصين يُسمون الجراحية، وقد اشتهروا بالمهارة في معالجة الجروح والإصابات.

يروى أسامة بن منقذ أن رجلاً مسلماً ضربه إفرنجي بسيف فشق وجهه إلى أذنيه، فجيء به محمولاً إلى شيزر، وتولاه جراحني فحافظ وجهه وداواه فأنجم وعاد كما كان⁽²⁾.

وبحدثنا أيضاً عن عمّة الذي جرح في عينه إثر طعنة في إحدى المعارك أدت إلى تدلي عينه على خده، فاستطاع الجراحني أن يعيدها إلى مكانها ويخيط الجرح بإتقان حتى أن من كان يراها لا يصدق ما حدث لها⁽³⁾.

كان هذا المستوى الطبّي الرأقي عند المسلمين يقابله عند الصليبيين مستوى متدنٍ للغاية، فقد كان الطيّب عند الصليبيين

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 675.

(2) ابن منقذ، الاعتبار، ص 163.

(3) المصدر نفسه ص 55.

عبارة عن خرافات وشعوذة. وما رواه أسامة بن منقذ يُظهر لنا مدى التديني الذي كان عليه طب الصليبيين. ومن المعروف أن أسامة كان شاهداً عياناً اختلط بالصليبيين، ولذلك يعتبر كلامه عنهم حجة لها أهميتها. فقد روى أن جيلوم دو بور⁽¹⁾ أخبره أثناء رحلته من عكا إلى طبرية برفقة معين الدين أنر⁽²⁾، عن فارس في أوروبا مريض مرضاً شديداً، فجيء إليه بفس كبير فوضع عليه يديه، وكان الحاضرون يتوقعون شفاؤه فور قدوم القس، غير أن القس طلب شمعاً ولبنة، وعمله مثل عقْد الإصبع ووضع كل واحدة في جانب أنفه فمات. وما كان من القس إلا أن انقضت إليهم وقال سددت أنفه حتى يموت فيستريح⁽³⁾.

وروى أسامة أيضاً أن طبيباً اسمه ثابت كان عند آل منقذ في شيزر، فطلبه منهم صاحب المنيطرة الصليبي فمكث عنده عشرة أيام شاهد خلالها صوراً سيئة من طرق العلاج. فقد جاءه فارس

(1) Guillaume de Bures ، سيد طبرية (1126 - 1141).

(2) وزير مجبر الدين أبوقريش بن بوري صاحب دمشق. تولى الوزارة في سنة أربع وثلاثين وخمسة مائة، وكانت السلطة بيده. وكان يخشى من نور الدين زنكي أن يستولي على دمشق فاستعان بالاقرعي مما جعل زنكي يقيم عليه. وفي سنة إحدى وأربعين عاد الصفاء بينهما وتزوج نور الدين ابنة معين الدين، ولما حاصر الأفرنج دمشق سنة أربع وأربعين أبى معين الدين أن يشجاعة وصلابة (ابن قاضي شهبة، التواريخ الدرية ص 111، 124، 127).

(3) ابن منقذ الاعتبار ص 137 - 138.

صليبي يشكو من دُمْلَةٍ ظهرت في قدمه، وجاءته امرأة قد لحقها
نشاف، فعالجهما ثابت بأدوية عن خبرة وبصيرة ولكن طبيياً
صليبياً أنهم ثابتاً بالجهل؛ وخير الفارس إن كان يريد العيش برجل
واحدة أو يموت برجلين - فاختر الفارس أن يعيش برجل واحدة،
فطلب المعالج الصليبي فارساً قوياً ومعه فارس فاطعة فوضع قدم
الفارس على خشبة وأمر بضرب ساقه حتى ساق مُخْتَمَةً، فساق
ثم التفت إلى المرأة وقال: إن في رأسها شيطاناً قد عشقها فأمر
بحلق شعرها. ولما أقيمت على الطعام، وأكثرت من النوم
واختر ذلك، زاد أَلْمُها فقال: إن الشيطان دخل رأسها فأخذ الموس
وشق رأسها صليباً، ثم سلخ وسطها حتى ظهر عظم الرأس فحككه
بالملاح فماتت⁽¹⁾.

هذه المأساة التي كانت تحدث في جانب الصنّيبين جعلتهم
يقدرّون الطبّ عند أهل الشام ومصر، ويقدّرون أطباء المسلمين
على أطبائهم. على الرغم من معارضة رجال الكنيسة وعلى
رأسهم برنار دي كليرفو⁽²⁾ الذي كان أحد معاصري أسامة بن

(1) ابن منقذ، الاعتبار: ص 132 - 133.

(2) Bernard de Clairvaux مؤسس دير كليرفو، وكان أول روماني. كانت فترة نشاطه
بين سنتي 1130 و1145 ميلادية، اشترك خلالها في عدة مجامع كنسية ومصلية.
ويتشجع من البابا يوجينوس الثالث Engenius III (1143 - 1153)، ولويس
السايع ملك فرنسا روج برنارده للحملة الصليبية الثانية (1147 - 1149) التي =

منقذ، وكان يؤمن بالمعجزات الشفائية، لذلك حرّم على رهبانه
الذين يداومهم المرض، أن يتناولوا أي نوع من أنواع الأدوية، أو
أن يتصلوا بالأطباء لأنه يجدر بهم حسب رأيه أن يموتوا دون أن
تعبث بهم العقاقير⁽¹⁾.

ولم تكن هذه المعتقدات تابعة من برنار وأمثاله، بل كانت
متأصلة في الوعي الديني آنذاك، ومشفوعة بقرارات كنسية
مستندة إلى تفسيرات من قبل رجال الدين. فقد كانوا يستندون
إلى نصوص الأناجيل، مثل إنجيل متى الذي زعم فيه أن المسيح
قال للحواريين «اشفوا مرضى، طهروا برصاً، أقيموا موتى،
أخرجوا شياطين»⁽²⁾. كما كانوا يستندون إلى أقوال لآباء الكنيسة
الأقدمين مثل طايطيان⁽³⁾ الذي قال: إن علم العقاقير بأشكالها
المختلفة يرجع في أصله إلى الفن الباطل الخادع القائم على
المادة⁽⁴⁾. لقد كانت الكنيسة تعلم أن تعاطي العقاقير وممارسة
النطب وإجراء العمليات الجراحية بالآلات أعمال تنافي تعاليمها.

- انتهت الفصل طوبته كتيسة روما قدياً في سنة 1174 (Encycl. Brit. Micro)
(dia Vol. 1 p. 1010) .

(1) انظر زيفريد هونكه - شمس العرب، ص 222 - 223 .

(2) متى : 10 : 8 .

(3) Tatién (20 : 173 م) .

(4) زيفريد هونكه ، شمس العرب ص 219 .

وترى أن عمل الطبيب بيديه أمر مشين . وظلّ معمولاً بهذه المبادئ التي اخنقتها الكنيسة على مدى أجيال طويلة .

لقد كان من الأمور المعيبة أن يمارس عميد الطب مهنة يدوية ، حتىّ جسّ النبض اعتبر أمراً دنيئاً مهيناً⁽¹⁾ ، هذا في الوقت الذي كانت مهارة الطب الإسلامي تقوم أساساً على ما كان يُعرف في ذلك الوقت بالعلاج باليد، هذا العلاج الذي يُظهر خبرة الطبيب ودرايته .

هكذا حرمت الكنيسة على رجالها تعاطي الأدوية وممارسة الجراحة ، وقد نقل عن المؤرخ انقريجي غريغوريوس أسقف تورن⁽²⁾ ، وهو من علماء القرن السادس الميلادي قوله : « ماذا يوسع الأطباء أن يحققوا بأنهم ؟ إن وظيفتهم بسبب الآلام أكثر من العمل على تخفيف وطأتها . إنهم عندما يفتحون العين مثلاً ، ويعملون فيها بمباضعهم الدقيقة الحادة ، تجريحاً وتقضيماً ، فهم يدفعون بأهوال الموت قُدماً قبل أن يُعيّنوا العين على الإبصار ثانية ، ثم إنهم إذا لم يأخذوا جميع احتياطاتهم بدقة وحذر شديدتين ، ذهب البصر جميعه إلى الأبد . وأما طبيبنا الحبيب ،

(1) المصدر نفسه ص 220 .

(2) Gregoire de Tours (538 - 594) ، أسقف ومؤرخ فرنسي .

فليس عنده لكم إلا آلة معدنية واحدة هي إرادته ، ومرهم واحد هو قوته الشفائية العجائبة⁽¹⁾ .

لذلك وحسب تعاليم الكنيسة وجب على المرضى ، وحتى الذين تتنابهم الحمى ، دون رحمة أو شفقة ، أن يمتنعوا عن تناول العقاقير الطبية قبل قبول سر الاعتراف . وعلى هذا أصدر المجمع الكنسي الذي عقد في سنة (895) ميلادية في مدينة نانت⁽²⁾ بفرنسا قراراً يلزم كل كاهن بأن يعود كل مريض من رعيته ، وأن يرشده بأمام المقدس ، ويشاركه الصلاة ، ثم ينبغي له أن يقبل منه اعترافه في غياب ذويه ويحثه على تصفية أموره الدنيوية والذنيوية معاً على أكمل وجه ، وبناءً على هذا فليس ثمة علاج بدون اعتراف⁽³⁾ .

وأصبح هذا القرار تقليداً شائعاً جعل منه البابا أنوسنت الثالث⁽⁴⁾ فيما بعد واجباً مُحتمماً على كل فرد ، مهدداً بذلك الطبيب بحرمانه من الكنيسة إن هو عالج مريضاً لم يعترف من قبل ، وإذا حدث أن رفض المريض أن يتقدم للاعتراف ، ورفض بالتالي الطبيب النصراني أن يعالجه عملاً بتعاليم الكنيسة ، فاضطر

(1) زيفريد هونكه المرجع السابق ص 220 - 221 .

(2) Nantes ميناء غرب فرنسا يصله بالأطلسي خليج .

(3) زيفريد هونكه المرجع السابق ص 220 - 221 .

(4) Innocent III (بابا 1198 - 1216) ، مات بسبب مرض خطير ألم به .

هذا المريض إلى أن يلجأ إلى طبيب آخر مسلم، فإن الكنيسة كانت تنزل عليه الخُرْمَ الكَنَسِي . ويظلّ المريض على هذه الحالة بلا علاج.

كتب برناردي كليرفو في إحدى رسائله . « لجأ إليّ ذات يوم راهبٌ فرّ من ديره وأمارات الاستغراب والتعجب الشديدة بادية عليه لأن رئيسه قد طلب منه أن يعالج الطُعْمَاءَ والنُّصُوصَ وحتى المحرومين من الكنيسة أيضاً⁽¹⁾ وهذا بطبيعة الحال يتنافى مع المبادئ الإنسانية، ويرفضه أي طبيب مسلم، بل وأي طبيب يلتزم بأخلاق مهنة الطب.

لقد كان الرجال المشخنون بالجروح التنازفة ينتظرون في صفوف مدة طويلة، استعداداً لتفريق من مرّ الاعتراف، وللإقرار بخطاياهم، وتناول خبز القربان قبل أن يسعفوا إسعافاً أولياً. كان هذا المشهد يحدث في مستشفى أسسه أحد فرسان (القدّيس) يوحنا في القدس⁽²⁾.

وعلى الرغم من موافق الكنيسة هذه، فقد كان تقدير الصليبيين لأطباء مصر والشام كبيراً، وخير مثل على هذا ما حدث

(1) زيفريد هرنكه ، « شمس العرب » ص 223 - 224 .

(2) المرجع نفسه ص 224 ، 225 .

عندما أصيب بودوان بن عمّوري ملك بيت المقدس بالجذام، فقد استقدم عمّوري طبيباً من الديار المصرية هو داود بن أبي المنى⁽¹⁾ لمعالجة ابنه⁽²⁾. لقد علّل ستيفن رانسيمان وإقبال الصليبيين هذا بأن الأمراض التي أصيبوا بها في الشرق كانت غريبة على أطباءهم⁽³⁾. وهذا التعليل تعوزه الموضوعية. فقد وضع مما سبق أن أطباء الصليبيين لم يكونوا على المستوى الذي يسمح لهم بمعالجة الأمراض على النحو المطلوب، فهو تعليل أقرب إلى التبرير. وكان الأمراء الصليبيون يلجؤون إلى أطباء المسلمين عندما يصاب أحد منهم بمرض مما جعل وليم النصوري يقول بشيء من الأسى: «إن أمراءنا الشرقيين، تحت تأثير نسايتهم، يزرون بالأدوية وبالوسائل الطبية اللاتينية ولا يؤمنون إلا بالأطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب»⁽⁴⁾.

وكان بعض الطلاب الأوروبيين المحبين للمعرفة، يقدون إلى الشام لدراسة الطب في مدرسة طرابلس. وكانوا يبدون

(1) طبيب نصراني، فاضل في الصناعة الطبية، خبير بعلمها وعمليها، مشير في العلوم. وكان من أهل القدس، ثم انتقل إلى الديار المصرية، وكانت له معرفة بالغة بأسرار النجوم (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 587).

(2) انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 587 - 588.

(3) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2 ص 510 - 511.

(4) فيليب حتى، تاريخ لبنان ص 389.

دراستهم بعد تعلمهم وإتقانهم اللغة العربية⁽¹⁾ . وكان هؤلاء الطلاب يمارسون الطب بعد عودتهم بالمستوى الرفيع الذي وصلوا إليه، وقد طلب بعضهم من البابا أنومنت الثالث أن يعمل على إقامة عدد من المشافي، فبادر في سنة (1204 ميلادية) بإنشاء مستشفى في روما سمّاه مستشفى الروح القدس⁽²⁾ . وأعقب هذا إنشاء عدد من المستشفيات على غرارها في مختلف أنحاء أوروبا، وقد وصل عدد هذه المستشفيات في القرن الثالث عشر الميلادي في ألمانيا وحدها إلى أكثر من مئة مستشفى . وفي فرنسا كثرت المستشفيات التي تُعنى برعاية العجزة والفقراء . وفي عام (1260 ميلادية) أنشأ لويس التاسع في باريس ملجأ الثلاثمائة⁽³⁾ ، وكان في بداية الأمر مأوى للمكفوفين، ثم أصبح مستشفى للرمم، والآن يعتبر من أهم المراكز الطبية في باريس⁽⁴⁾ . ومن المعروف أن الملك لويس كان قد قاد حملة إلى الشرق في عام (1249)⁽⁵⁾ ، ولاشك أنه رأى في الشرق نماذج من المستشفيات فعمد على إقامة مثلها في بلاده . أما في إنجلترا فقد أنشئ مستشفى (القديس)

(1) عمر عبد السلام تدمري «الحياة الثقافية» ص 69 .

(2) Spiritus Sanctus (Spirito Santo) .

(3) Quinz - Vingts .

(4) ول ديورانت : قصة الحضارة ج 6 / 4 ص 196 .

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا انصراف الوسطى ج 1 ص 447 .

بورثولميوس⁽¹⁾ في لندن في سنة (1123) ميلادية، ويعتبر أقدم مستشفى في هذه البلاد. وفي عام (1215) أسس مستشفى (القديس) توماس⁽²⁾ في لندن⁽³⁾.

وإضافة إلى الطلاب الذين كانوا يفدون إلى الشرق للدراسة كان هناك أطباء يرافقون الحملات الحربية ويجدون في هذا فرصة للتزود من معارف الشرق، ولا سيما في مجال الطب من الناحيتين العلمية والعملية. وكان من هؤلاء جراح إيطالي يدعى هوج البولوني⁽⁴⁾ قدم إلى الشرق في عام (1218) الميلادي ومكث ثلاث سنوات اطلع خلالها على طرق العلاج، واتصل بالأطباء ليكتسب الخبرة، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى المستشفى العسكري المتنقل الذي يحمله أكثر من ثلاثين رجلاً. وأثناء حصار دمياط تعرف هوج على الطريقة التي بضمها المصابون، فقد تعلم كيف تُكفُّ الجروح بخرق نظيفة ساخنة مبلولة بالخمر ثم تترك مدة أسبوع حتى تندمل⁽⁵⁾.

وقد أبدى هوج إعجابه بصفة خاصة بطريقة التخدير التي كان يتبعها الأطباء المسلمون قبل إجراء العمليات، وكان الأطباء

(1) St. Bartholomew

(2) St. Thomas

(3) جوزيف جاروند قصة الطب ص 75.

(4) Hugues de Bologne

(5) زيفريد هونكه، شمس العرب، ص 300 - 301.

المصريون يستعملون نبات الخشخاش والشوكران⁽¹⁾ لتخدير المرضى. ورأى عملية تجبير الكسور التي تتم بطرق علمية لا تستخدم فيها آلات التعليب التي كانت متبعة في أوروبا. وعندما عاد هوج إلى أوروبا في عام (1221) اهتم بنشر هذه الطرق والأساليب. وقد ترك بعد وفاته مدرسة للجراحة في بولونيا، تولاها ابنه ثيودريك⁽²⁾، الذي كان أبوه قد أوصاه بالاهتمام بتضميد الجروح على نحو ما تعلمه من العرب، واتباع طريقتهم في التخدير. وقد أثبت ثيودريك أنه خير خلف لأبيه فقد زاد مهنة الطب وألّف كتاباً في الجراحة⁽³⁾ ضمنه تعاليم أبيه الطبية وبخاصة في هذا الحقل⁽⁴⁾.

كانت الكنيسة قد حرّمت ممارسة الجراحة بموجب مرسوم صدر في سنة (1163) ميلادية. ولكن بعد أن أخذت الكتب الطبية المترجمة عن العربية تنتشر في أوروبا وتأسست عدة مراكز طبية على غرار مراكز الشرق، بدأ الاهتمام بالجراحة⁽⁵⁾. وقد جاء في

(1) ج، في الترجمة العربية تكتاب زيفريد هوتكه «تتمس العرب تسطع على العرب» الخشخاش والشوكران» ويضلل أن يكتب «الخشخاش والشوكران» (انظر من سيناء، القانون في الطب، الكتاب الثاني في الأدوية المفردة ج 1 ص 456، 451).

(2) Theoderich.

(3) زيفريد هوتكه «تتمس العرب» ص 300 - 302.

(4) مونتميري واط «أثر الحضارة» ص 134.

(5) Charels d'Anjou (1226، 1285)، ملك صقلية (1266 - 1285)، ملك بيت القدس (سنة 1227 م).

سجلات شارل دالمجو⁽¹⁾ ملك صقلية ذكر لكثير من المؤلفات اللاتينية المترجمة عن اللغة العربية . وقد رافق شارل أخاه لويس التاسع ملك فرنسا في حملته على مصر ، وتسلى له الاتصال بالعلماء العرب ، وقد عرف عنه أنه أسس مدرسة للترجمة⁽²⁾ .

هذا وقد تمت في الشرق ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللاتينية ، ومن أشهر هذه الترجمات ترجمة كتاب «الملكي كامل الصناعة الطبية» الذي ألّفه علي بن عباس المجوسي⁽³⁾ ، وهذه الترجمة قام بها ستيفن الأنطاكي أثناء وجوده في أنطاكية في سنة (1127) ميلادية وسَمّاه «الكتاب الملكي»⁽⁴⁾ ، وهو العنوان الذي عرف به الكتاب في أوروبا⁽⁵⁾ . والواقع أن هذه الترجمة إعادة للترجمة التي قام بها قسطنطين الإفريقي في دير مونتسي كاسينو⁽⁶⁾ في إيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي ، وقام

(1) جلال مظهر «أثر العرب» ص 188 .

(2) Leber Regius .

(3) عالم وطبيب ، فارسي الأصل من الأهواز ، تلمذ على يد موسى بن يوسف بن سيار المتوفى في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ، كان متصلاً بعهد الدولة بن بويه ، توفي حوالي سنة أربعمئة (خير الدين الزركلي ، الأعلام ج 4 ص 297) .

(4) انظر ماكس مايرهوف «العلوم والطب» ص 499 - 500 .

(5) Constantinus Africanus (1020 - 1087) ، وقد ترجم هذا الكتاب تحت اسم

. Liber Pantegni

(6) Monte Cussino ، وهذا الدير أقامه القديس .

فسطنطين بتدريس هذا الكتاب في ترجمته اللاتينية بالجامعة الطبية في سالرنو التي تخرج منها. وقد قوّى الأثر العربي في هذه الجامعة أيضاً المعلومات الطبية التي كان الصليبيون العائدون من الشرق يحملونها معهم⁽¹⁾، فكانت إلى جانب الكتب العربية رافداً من روافد التعليم الطبي في جامعة سالرنو وظلّت المقالتان الأولى والثالثة مرجعاً لطلاب هذه الجامعة في علم التشريح مدة قرن من الزمان⁽²⁾.

وعلى الرغم من أن جامعة سالرنو كانت قد اتبعت منهجاً خاصاً في تدريس الطب عرف بالمنهج السالرنوي، ذلك المنهج الذي ما زال موضع البحث، إلا أنها جعلت كتاب «الملكي» كتاباً أساسياً في برنامج الدراسة على أسس سليمة. فهذا الكتاب الذي يقع في جزءين من عشرين مقالة، كان فتحاً جديداً في عالم الطب الأوروبي، لأنه أضاف كثيراً إلى الطب الأبقراطي والجاليني⁽³⁾.

هذا الكتاب ألفه علي بن عباس للملك عضد الدولة ابن بويه، ولذلك سمّاه «الملكي». وهو يتحدث في وصايا أبقراط وغيره من

(1) أمين سعد خيرا، الطب العربي، ص 207.

(2) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم، ص 230.

Encyc. Brit. Micropaedia Vol.3.P.102.

(3) علي انغراوي، الأصول المعجمية، ص 32-33.

قدماء المتطيين، والأعضاء المتشابهة، والأعضاء المركبة والقوى والأفعال والأرواح، والأمور التي ليست بطبيعية، والأمور الخارجة عن الأمر الطبيعي، ومعرفة الأدلائل العامة على الأمراض والعلل، والاستدلال على الأمراض الظاهرة للحسن وأسبابها، وعلاماتها، وحفظ الصحة، ومداواة الأمراض بالأدوية المفردة، ومداواة الحميات والأورام، والعلل والأعراض العارضة في سطح البدن، وأمراض الرأس، ومداواة العلل العارضة في آلات التنفس، ومداواة العلل العارضة في آلات الغذاء، ومداواة العلل العارضة لآلات التناسل والمفاصل، وعلاج الأمراض التي تكون باليد، والأدوية المركبة.

ويشير علي بن عباس في مقدمة كتابه إلى أوجه النقص في كتب القدماء والمحدثين، والدافع إلى تصنيف كتاب كامل في الصناعة الطبية فيقول: «ولما كان العلم بصناعة الطب أفضل العلوم وأعظمها فدرأ وأجنبها خطراً وأكثرها منفعة لحاجة جميع الناس إليها، أحببت أن أصنف لخزانته كتاباً كاملاً في صناعة الطب، جامعاً لكل ما يحتاج إليه المتطيين وغيرهم من حفظ الصحة على الأصحاء وزدها على المرضى، إذ كنت لم أجد لأحد من القدماء والمحدثين من الأطباء كتاباً كاملاً يحوي جميع ما

يحتاج إليه من بلوغ غاية هذه الصناعة وأحكامها⁽¹⁾.

فأما أبقراط⁽²⁾ الذي كان إمام هذه الصناعة وأول من دونها في الكتب فقد وضع كتباً كثيرة في كل نوع من أنواع هذا العلم منها كتاب واحد جامع لكثير مما يحتاج إليه طالب هذه الصناعة ضرورة، وهذا الكتاب هو كتاب الفصول. وقد سهل جمع هذه الكتب حتى تصير كتاباً واحداً حارياً لجميع ما قد يحتاج إليه في بلوغ غاية هذه الصناعة، إلا أنه استعمل فيه وفي سائر كتبه الإيجاز حتى صارت معان كثيرة من كلامه غامضة ويحتاج القارئ لها إلى تفسير⁽³⁾.

(1) علي بن عباس «كامل الصناعة» ج 1 ص 3.

(2) Hippocrate عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. ذكره ابن السليح في الفهرست (ص 400) باسم بقراط بن ايراقليس. والخليفة أنه على الرغم من شهرة أبقراط لا نعرف عنه غير معلومات قليلة، ولم يهتم حتى الآن على مؤلف واحد نيت أن أبقراط كتبه وأملأ بنفسه. كل ما نعرفه من خلال هذه المعلومات انقلية التي وردت عند أفلاطون في محاورته بروطاغوراس Protagoras ومحاورته فيديروس Phaedros، وفي شلرات مينون Menon تلميذ أرسطو المدونة في بردية لندن تلمجهون Lon- dinensis Anonymus رقم 137 والتي نشرها ديتر D. Diels في برلين سنة 1893، وكذلك في مجموعة الوثائق الأنقراطية التي كتبها تلاميذ أبقراط منذ أواخر القرن الخامس حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وهذه المعلومات انقلية لا تعطينا صورة واضحة عن حياة أبقراط الشخصية، وكما قال سيجريست El. G. Sigerist في كتابه «كبار الأطباء» Grosse Aertzte الذي نشره في ميونيخ سنة 1938: «نكاد لا نعرف عن أبقراط غير أنه شخص كان له وجود حقيقي» (علي الفمراوي، الأصول المعجمية ص 38 حاشية 12).

(3) علي بن عباس «كامل الصناعة» ج 1 ص 3.

«وأما جالينوس⁽¹⁾ المقدم المفضل في هذه الصناعة فإنه قد وضع كتباً كثيرة كل واحد منها مفرد في نوع من أنواع هذا العلم، وطول الكلام فيه وكرره لما احتاج إليه من الاستقصاء في الشرح وإقامة البراهين والرد على من عاند الحق وسلك سبيل المغالطين، ولم أجد له كتاباً واحداً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه في درك هذه الصناعة ويلوِّغ الغرض المقصود إليه منها للسبب الذي ذكرته آنفاً⁽²⁾ .

وقد وضع أوريباسيوس⁽³⁾ كتباً وفولس الأجنيطي⁽⁴⁾ ورام

(1) كلوديوس جالينوس Claudius Galenus ولد في بيرجاموس بأسيا الصغرى في سنة 131 ميلادية، كان أبوه معمارياً مثقفاً، كان جالينوس متوقفاً الذكاء، مولعاً بالدراسة، مغزماً بالجدد، درس الطب في الاسكندرية وغيرها. ولما عاد إلى بيرجاموس عين جراحاً للمصارعين وعمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين. ولما ذاع صيته استقدم إلى روما وتأنى بها شهرة واسعة مما أثار عليه حقد زملائه الأمر الذي جعله يعود إلى بيرجاموس في سنة 168 وفي عام 200 مات جالينوس مختلفاً آثاراً علمية قيمة.

(جوزيف جارلند، قصة العرب من 60-62).

(2) علي بن عباس «كامل الصناعة» ج 1 ص 3.

(3) أوريباسيوس Oribasius طبيب عاش في القرن الرابع. من كتبه «كتاب شرح الأحشاء» و«كتاب الأدوية المستعملة» (ابن النديم، الفهرست ص 407).

(4) Paulus Aegineta من أهالي جزيرة إيجينا Aegina في بلاد اليونان. عاش في القرن السابع ذكر في الكتب العربية أيضاً باسم فولس وفولوس (انظر د. علي القمراوي، الأصول المعجمية ص 39 حاشية 15)، كان خبيراً بأمراض النساء، وكانت القوابل يأتيه ويسأله عن الأمور التي تحدث للنساء بعد الولادة فيخبرهن بما يجب أن يفعلنه ولذلك سموه بالقوابلي (انظر ابن المبري، تاريخ مختصر الدول ص 103).

كل واحد منهما أن يُبين في كتابه جميع ما يحتاج إليه ، فوجدت أوريباسيوس قد قصر في كتابه الصغير الذي وضعه لأبيه أونافس⁽¹⁾ وإلى عوام الناس فلم يذكر شيئاً من الأمور الطبيعية وقصر في الأسباب . وكذلك في الكتاب الذي وضعه لابنه أسطاث⁽²⁾ في تسع مقالات فإنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية التي هي الاستقصاءات من الأمزجة والأخلاق والأعضاء والقوى والأفعال والأرواح إلا اليسير ولم يذكر في هذين الكتابين شيئاً من العمل باليد . فأما كتابه الكبير الذي وضعه في سبعين مقالة فلم أجد فيه إلا مقالة واحدة فيها ذكر تشريح الأعضاء⁽³⁾ .

وأما فولس فلم يذكر في كتابه⁽⁴⁾ من الأمور الطبيعية إلا اليسير ، وأما أمر الأسباب والعلامات وسائر أنواع المداواة والعلاج باليد فقد بالغ في بيانه ، إلا أنه لم يذكر ما ذكره في كتابه على طريق من طرق التعاليم . وأما المحذون فلم أجد لأحد منهم كتاباً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه من ذلك إلا أن هارون⁽⁵⁾

(1) أونافس Eunapius .

(2) Eustathius .

(3) علي بن عباس ، كامل الصناعة ، ج 1 ص 3 - 4 .

(4) يقصد عني بن عباس كتاب الكنائس في الطب (انظر ابن التميمي ، الفهرست ص 407) .

(5) يرجح أنه أمير النصر هارون بن صاعد بن هارون الصابي طبيب مائة بغداد كان مقدم الأطباء في البيمارستان العفندي ، مات سنة أربع وأربعين وأربعمائة (انظر خير الدين أنزركني ج 8 ص 61) .

وضع كتاباً ذكر فيه جميع ما يُحتاج إليه في مداواة الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها، وما سوى ذلك فذكره على جهة الإيجاز من غير شرح واضح، ومع ذلك فإن ترجمته سيئة رديئة تُعصي على القارئ كثيراً من المعاني التي قصد شرحها لا سيما من لم ينظر في ترجمة حنين⁽¹⁾ وأشباهه⁽²⁾.

وَأما أنا فإني أذكر في كتابي هذا جميع ما يحتاج إليه من حفظ النسخة ومداواة الأمراض والعلل وطبائعها وأسبابها، والأعراض التابعة لها، والعلامات الدالة عليها، مما لا يستغني الطبيب الماهر عن معرفته، وأذكر في أمر المداواة والعلاج والتدبير بالأدوية والأغذية ما قد وقعت عليه التجارب واختارته القدماء مما قد صحت منفعته وامتحانه، وأطرح ما سوى ذلك، واستشهدت في كثير من المواضع بقول أبقراط وجالينوس المقدمين في هذه الصناعة لا سيما القوانين والدسورات في الأصول التي يستعملها

(1) أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي. ولد في سنة أربع وتسعين ومائة طيب ومؤرخ ومترجم. كان أبوه صيدانياً من أهل الحيرة، أخذ حنين علوم العربية عن الخليل بن أحمد في البصرة. استقل إلى بغداد وتعلم الطب على يد يوحنا بن ماسويه وغيره، أتقن اللغات اليونانية والسريانية والفارسية فصارت إليه رياضة العلم بها بين المترجمين، كان شاعراً فصيح العبارة، جعله المأمون رئيساً لديوان الترجمة، لحص عدداً من كتب أبقراط وجالينوس. من كتبه «المسائل في العين» و«المدخل إلى علم الروحانيات» توفي في سنة ستين ومائتين (خير الدين الزركلي ج2 ص 287).

(2) حني بن عباس «كامل الصناعة» ج1 ص 3 - 4.

أصحاب القياس وعليها مبنى الأمر في حفظ الصحة ومداراة
الأمراض⁽¹⁾.

وقد تحدث ابن العبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول» عن
كتاب علي بن عباس فقال:

«هو كتاب جليل، وكناش نبيل. مال الناس إليه في وقته
ولزموا درسه إلى أن ظهر كتاب القانون لابن سينا⁽²⁾ فمالوا إليه
وتركوا المللكي» بعض الترك. «والملكي» في العمل أبلغ،
«والقانون» في العلم أثبت⁽³⁾. لقد كان كتاب «كامل الصناعة
الطبية» ذا قيمة علمية، وكان رجال الحسية الذين يقومون
بالجولات على الصيدلة يشترطون على الشرايبي وهو الذي يحضر
العقاقير الطبية أن يعتمد المقادير المعتمدة في كتب الطب المشهورة
ومنها كتاب علي بن عباس⁽⁴⁾.

ولا شك أن انتشار هذا الكتاب وغيره من الآثار العربية في
أوروبا أدى إلى تطور الطب الأوروبي. وقد تُرجم في أوروبا من

(1) المصدر نفسه.

(2) الحسين بن عبد الله بن سينا، الفيلسوف الرئيس، ولد في إحدى قرى بخارى في سنة
سبعين وثلاثمائة. له مؤلفات في الطب والمنطق والطبيبات والإنهيات. تنقل في
البلدان وناظر العلماء. وتقلد الوزارة في همدان ولما أثر عليه عسكرها تركها إلى
أصفهان التي كتب فيها معظم مؤلفاته وفي طريق عودته إلى همدان مرض وتوفي
فيها في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. (عبر الدين الزركلي، الأعلام ج 1
ص 142-242).

(3) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 175.

(4) الشيزري، نهاية الرتبة، ص 56.

العربية إلى اللاتينية أكثر من ثلاثمائة كتاب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين ، وهذا العدد كبير بالنسبة لهذه الفترة ، لقد بدأت الصحوة الأوروبية في هذين القرنين بعد أن عرف الأوروبيون الحضارة الإسلامية عن كثب ، فأرادوا أن يصنعوا في أوروبا حضارة لهم ، مستفيدين من الأفكار والنظريات التي انتهى إليها العلماء المسلمون ، فواصلوا المسيرة العلمية حتى استطاعوا أن يشيدوا صرح الحضارة الحديثة⁽¹⁾ .



(1) جلال مظهر ، أثر العرب : ص 192 .

الفصل الرابع

الآثر العقدي

نقاط الفصل

نظرة الصليبيين إلى الإسلام والمسلمين - تأثر الصليبيين
بالمسلمين - إجراءات الكنيسة - موقف العائدين إلى أوروبا -
البابوية والملوك الأوروبيون - المبادئ الحرة - العهد الأعظم -
الصليبيون والإسماعيلية - لويس التاسع - بركارد - الماسونية -
الكنيسة والمذاهب الجديدة - الوالدونسيون - البتريائيون -
الكاثاري - موقف البابوية من الفرق الجديدة - بداية التنصير في
الشرق .

* * *

في هذا الفصل نُحاول أن نلقي بعض الضوء على تأثير الصليبيين بمعتقدات المسلمين . وتعني بالآثار العقديّة الأمور التي طرأت على عقيدة المجتمع الأوروبي سواء في نظرته تجاه الله جلّ جلاله ، وتجاه الكون والمسيح عليه السلام ، أو في موقفه من البابا والكنيسة . وبطبيعة الحال لا يمكن أن يتطرق إلى أذهاننا أن انصاري أخذوا من أصول الدّين الإسلامي ، فهم لم يأخذوا عن رسالة المسيح نفسها وإنما حرّفوها ؛ فما بالنا برسالة محمد ﷺ ، كل ما نهدف إليه في هذا الفصل هو تبيان الأثر الإسلامي على نمط الحياة الأوروبية والفكر الأوروبي بصورة عامة ، والفكر الدّيني على وجه الخصوص ، سواء على الصليبيين الذين عاشوا في الشرق ، أو على أقرانهم من الأوروبيين الذين عرفوا منهم ومن العائدين مبادئ الإسلام وطبيعة الحياة الإسلامية .

لا شكّ في أن الأوروبيين الذين قدموا إلى الشرق حديثاً في صفوف الجيوش الصليبية ، كانوا يكرهون المسلمين لأنهم نصاري عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقولهم ، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله . ولا غرو فقد ضللتهم الكنيسة وأذاعت عليهم أنهم ذاهبون لتحرير القدس والقبر المقدس من أيدي المسلمين ، يباركهم الرّبّ والبابا ، فجاؤوا وقد دبّ في قلوبهم الحقد والبغضاء . لذلك لم يردعهم رادعٌ عن ذبح أو تقجيل بل كان قتل

المسلم مرضاة ينالون عليها ثواباً يوم الدينونة . هكذا علمتهم الكنيسة . وفضلاً عن ذلك نعلم بعض الصليبيين القادمين إثارة المشاعر الدينية لدى المسلمين . يذكر أسامة بن منقذ أنه وهو بصحبة معين الدين أترفي القدس جاء صليبي إلى معين الدين وقال له : هل تريد أن ترى الله في صورة مصغرة ، فقال : نعم . فمشى به إلى صورة لريم وفي حضنها المسيح وقال : هذا هو الله⁽¹⁾ ، تعالى الله عما يشركون .

ومع مرور الوقت وتعايش الصليبيين مع المسلمين خفت حدة تعصبهم لما رأوه لدى المسلمين من تسامح بين مذاهبهم من جهة وبينهم وبين نصارى الشرق من جهة أخرى .

ويسوق لنا أسامة بن منقذ شاهداً يجمع بين صليبي حديث العهد بالشرق وآخرين عاشوا زمناً بين المسلمين فيذكر أنه كان يصلي في أحد مساجد القدس وحوله أصدقاء له من الداوية⁽²⁾

(1) ابن منقذ : الاعتبار ، ص 135 .

(2) الداوية أو الهيكليين Templiers يعرفون بفرسان المسيح وهيكل سليمان الفقراء . وهم أخوية دينية أسسها في القدس في أواخر سنة 1 ميلادية هوج دي باين Hugues de payens (1070-1136) مع رهب من الفرسان الفرنسيين لحماية الحججاج النصاري وقد سمح لهم بودوان الثاني (1130-1138) بالإقامة في مكان ملحق بالقصر الملكي في المنطقة التي كان بها هيكل سليمان ولذلك عرفه بالهيكليين . وفي عام 1128 استطاع هوج أن يحصل على اعتراف بأخوته العسكرية من البابا هونوريوس الثاني (Honorius II) (1124-1130) . وكثر أعداد هذه الفئة بسبب الكتاب الدعائي الذي ألفه برنار دي كليرفو في سنة -

فاقترب منه صليبي غريب وحاول صرفه نحو الشرق حسب ما يفعله النصارى في الصلاة، إلا أن أصدقاء أسامة طردوا هذا الرجل واعتذروا له⁽¹⁾ هذا الغريب جاء بعقاية منعصبة فلم يكن بوسعها أن يتحمل مشهد رجل لا يتجه في صلاته إلى الشرق. ولكن أصدقاء أسامة الذين كان لهم معرفة بالإسلام والمسلمين طردوا هذا الرجل واعتذروا من تصرفه المشين.

كان أوائل الصليبيين الذين قدموا إلى الشرق، يحملون صوراً مشوّهة عن الإسلام والمسلمين، فالإسلام في تصورهم كفرٌ يدعو إلى الإباحية، والمسلمون كفّار يعبدون محمداً الذي هو في نظرهم ساحر أو شيطان⁽²⁾. ومنهم من وصل إلى المضلال إلى حد تحريف اسم محمد ﷺ إلى موهاوند⁽³⁾ وهي لفظة تعني شيطان

130: بعنوان إظهار المليشيا تمثل قوة عسكرية يعتمد عليها الجيش الصليبي في محاربة المسلمين. وقد أثرت هذه الجماعة ثراء كبيراً، وأصبح لها أملاك كثيرة في أوروبا وبخاصة في فرنسا. وقد خشي الملك فيليب الرابع Philippe IV le Bel (1268-1314) من نفوذهم وسطوتهم فسمح إلى تدبيرهم وانهمهم بالانراط وقد تم القضاء عليهم في الثاني والعشرين من من شهر مارس سنة 1312 في عهد البابا كلمنت الخامس Clement V وبعد ذلك بسنتين أمر البابا بإحراق زعيمهم جاك دي موليه Jacques de Molay.

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص 134-135.

(2) مونتغمري وايط، أثر الحضارة العربية، ص 144.

(3) Mohound.

في لغة اسكتلندا⁽¹⁾ ولكن هذه الصورة المشوهة عن الإسلام سرعان ما تغيرت بعد أن طالت إقامة الصليبيين بين المسلمين، فأصبحت لديهم معلومات عامة عن الإسلام. حدث أن أرسل فريدريش الأول ببروسيا⁽²⁾ في سنة (1175) ميلادية رجلاً يدعى بركارد⁽³⁾ مبعوثاً إلى صلاح الدين، وأثناء القيام بمهمته استطاع أن يتعرف على معتقدات المسلمين، وطريقة حياتهم فأعجب بها أعجاباً عجيباً، فلما عاد إلى قومه قال لهم: إن المسلمين يؤمنون بالله واحد هو خالق كل شيء، وأن نبيهم محمداً هو رسول الله. وحكى لهم عن الحرية الدينية التي يتمتع بها المسلمون، والتي لا يجد مثيلاً لها في المجتمع الأوروبي⁽⁴⁾.

وكانت العملة الصليبية تحمل نقوشاً عربية وبعض آيات من القرآن، إلى جانب التاريخ الهجري، وقد ظل التعامل بها إلى سنة (1249) ميلادية، ففي هذه السنة أصدر البابا إنوسنت الرابع⁽⁵⁾ قراراً بالخرمان على كل من يتعامل بهذه العملة، ولكن التجار تحايّلوا على هذا الحظر فسكوا عملة جديدة مشابهة تحمل نقوشاً

(1) انظر مونتميري واط، المرجع السابق ص 144.

(2) Friedrich Barbarossa (1152-1190). امبراطور ألمانيا.

(3) Burkard.

(4) جمال الدين الشيبان، التاريخ الإسلامي ص 67.

(5) Innocent IV (1243-1254).



نصرانية. وتاريخاً ميلادياً باللغة العربية⁽¹⁾. وهذا يدل على أن ظروف الحياة خففت من حدة تعصب النصارى، وفتحت عيونهم على حضارة راقية جدرة بالاهتمام، إلى جانب الظروف الاقتصادية التي فرضت عليهم التعامل مع التجار المسلمين حفظاً لمصالحهم.

وأصبح من المألوف لدى النصارى رؤية المسلمين وهم يؤدون الصلاة ويرتلون القرآن، وكان أسراهم الذين يمكثون في المعتقلات الإسلامية زمناً طويلاً، يشاهدون حراسهم وهم يصلون، مما يثير تساؤلات بعضهم عن الإسلام الأمر الذي جعل أفراداً منهم يقبلون على تعلم اللغة العربية بغية التعرف على هذا الدين. وربما أدى بهم ذلك إلى الإسلام⁽²⁾.

وكانت المزارات النصرانية في فلسطين مكاناً يلتقي فيه المسلمون بالنصارى، مما بعث روح التسامح بين الفريقين. فانسلمون يؤمنون برسالة عيسى عليه السلام. ويحترمون أمه. وفي القرآن الكريم سورة مريم تتحدث آياتها عن هذه الصديقة ومعاناتها وعقاقبها. ولا شك أن ذلك قد ترك في نفوس بعض النصارى أثراً طيباً تجاه المسلمين⁽³⁾.

(1) محمود الخوري، الأوغاد الحضارية، ص 145-144.

(2) انظر أمين الخوني، صلة الإسلام، ص 19-20.

(3) انظر أحمد رضايت، الحبيبة الأدبية، ص 216.

وكانت النساء الصليبيات يُقلدن المسلمات في لبس الحجاب الذي يضفي على المرأة الخشمة والوقار⁽¹⁾. وقد يكون هدفهن من هذا التقليد التميز عن بقية الصليبيات من الطبقة الفقيرة، وقد يكون إعجابهن بهذا الزي وراء هذا التقليد. وأياً كان الأمر فإن ذلك يدل على سرعة تأثر نساء الصليبيين بنساء المسلمين⁽²⁾.

ولا شك أن هذا أوجد تفاعلاً اجتماعياً بين الشرقيين والغربيين.

لقد كانت بعض بيوت الصليبيين تضم خادماً مسلماً، فيحدثنا أسامة بن منقذ أن فارساً صليبياً أقام له مأدبة ولما رأى الفارس أسامة لم يمد يده أخبره أن الطعام خال من الخنزير وأن لديه طبائحات مصريات⁽³⁾ ونفهم من هذا أن الصليبيين تأثروا أيضاً بموقف المسلمين من هذا الحيوان النجس الذي حرم الله لحمه وشحمه على المؤمنين.

وفي الوقت الذي كان اختلاف الدين في أوروبا مدعاة للاضطهاد، كان المسلمون على اختلاف مذاهبهم يعيشون مع النصارى بسلام. وفي كنيسة القيامة كان النصارى من مذاهب

(1) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2 ص 509.

(2) المرجع نفسه ج 2 ص 164.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 140.

شقى يؤدون صلاتهم . بل إن هناك كنائس يجتمع فيها المسلمون والنصارى ، كل يؤدي صلاته حسب شريعته . ولا شك أن هذا التآلف لفت أنظار النصارى الغربيين إلى ضرورة نبذ الخلافات المذهبية⁽¹⁾ وهذا أمر ترفضه الكنيسة التي شغلت عقول العامة بالتعصب الديني والتي كافحت بوسائلها الخاصة المفكرين في أوروبا . وكانت الكنيسة قد اتخذت تدابير مشددة لحماية الحجاج النصارى الذين يأتون إلى فلسطين ، خوفاً عليهم من التأثيرات الإسلامية فوظفت لذلك منظمة الهيكلين . ولكن الكنيسة رغم السباج القوي الذي طوقت به المجتمع الصليبي لم تسطع أن تمنع المؤثرات الإسلامية عنه . بل تسربت هذه المؤثرات إلى الهيكلين أنفسهم ، وقد تحمس بعضهم للإسلام وأبدوا إعجابهم بالنبي محمد ﷺ كما أعجبوا بالمبادئ الإنسانية التي يتمتع بها المسلمون ، ونظروا إلى صلاح الدين كمثل أعلى للبطل السامي الذي يتمسك بهذه المبادئ⁽²⁾ . ولما عاد أحد أعضاء هذه المنظمة إلى أوروبا أعلن على الملأ أن محمداً ليس زنديقاً ولكنه صاحب رسالة تدعو إلى التوحيد⁽³⁾ .

(1) جورج حداد، المدخل، ص 479، جاك . س . كرسلر، الحضارة العربية، ص 131 .

(2) أحمد رضا بك، المرجع السابق، ص 103 .

(3) محمد جميل بيهم، غزائل العروبة، ص 151 .

واكتشف العائدون إلى أوروبا حقيقة رجال الكنيسة الذي كانوا يدعون تمثيلهم الله ؛ وذلك من جراء اتصالهم بالمسلمين في الشرق . فقد رأوا أن المسلم يؤدي شعائره بلا وصاية وبدون وسيط . وقد حدث أن تجرأت جماعة عادت إلى أوروبا وقالت : «لو اجتمع البابوات والكرادنة من أولهم إلى آخرهم على أن يضحوا عن مخلوق ذنباً واحداً ما قدروا بل الله بغفر الذنوب»⁽¹⁾ .

وهم بذلك يدعون إلى الانعناق من هيمنة رجال الكنيسة ، وإلغاء الأدوار التي يقومون بها كتتمثيل المسيح وإصدار صكوك الغفران ، ومعنى هذا القضاء على موارد مهمة يرتزق منها الكنسيون . فلا غرو أن يقابل مثل هؤلاء الأفراد الذين يتطلعون إلى الحرية بوسائل القمع والإرهاب .

وكانت البابوية مهيمنة على ملوك أوروبا وقادتها ، وكثيراً ما كان بعض الملوك يتمنون التحرر من نعية البابا . ومن هؤلاء الإمبراطور فريدريك الثاني الذي كان يمتد السيطر البابوية ، وفي أثناء إقامته في عكا سأل مرافقة الأمير فخر الدين⁽²⁾ عن أصل الخليفة العباسي فقال له : «هو ابن عم نبينا ﷺ أخذ الخلافة عن

(1) قاسم السامرائي ، أصول الماسونية ، ص 7 .

(2) يوسف ابن الشيخ صدر الدين أبو الحسن بن عمر بن حمويه ، كان مقرّباً إلى الملك الكامل ، أبوه شيخ الشيوخ في مصر والشام ، من بيت فارسي أصله من خراسان (ابن واصل مفرح الكرب ج 4 ص 91) .

أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منهم». فقال الإمبراطور: «ما أحسن هذا، لكن هؤلاء قليلو العقول - يعني الفرنج - يأخذون رجلاً من المزيعة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلاً فُدماً [أحمق] يجعلونه خليفة عليهم، قائماً مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتمكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته»⁽¹⁾.

وكثيراً ما كان البابا يتدخل في شؤون الملوك الخاصة، وقد حدث أن ملك فرنسا فيليب الثاني أغسطس⁽²⁾ طلق زوجته الدامركية إسامبور، وتزوج آنسي الميرانية، فأصدر البابا سلسلتين الثالث⁽³⁾ قرار الحرمان ضده عام 1220م. إلا أن الملك لم يمثل للبابا وأعلن عصيانه، وقال: «ما أسعد صلاح الدين الذي ليس فوقه بابا»، وهدد باعتناق الإسلام⁽⁴⁾. لقد تمنى ملوك أوروبا أن يكونوا كملوك المسلمين يحكمون بحرية مطلقة، وبدون توجيه من زعيم ديني، لأن الإسلام دين ودنيا، ولأن الحاكم المسلم يحكم بشرع الله.

(1) ابن واصل «مفرج الكروب» ج 4 ص 251.

(2) Philippe II Auguste، ملك فرنسا (1180-1223) وزوجته: الدامركية، Agnès de Méran.

(3) Celestine II (1191-1198).

(4) ول ديورانت «قصة الحضارة» ج 4 / 4 ص 226.

نقد أدركت الشعوب الأوروبية بعد أن نالت الهزائم على الصليبيين في حطين (583 هـ - 1187 م) وما بعدها، أن البابا لا يمثل الله فهو كهامة الناس يخطئ ويصيب. وهذه النظرة الجديدة تعتبر تطوراً مهماً في العلاقة بين البابا والناس، فقد بدأت الثقة برجال الكنيسة تتلاشى، وعندما دعا بعض الرهبان إلى حملة صليبية جديدة، سخر منهم الناس وعمد بعضهم إلى توزيع الصدقات على الفقراء باسم محمد ﷺ وفأثروا: إن محمداً تفوق على المسيح. وهذا الموقف يدل على أن الشعوب الأوروبية كانت تنطلق إلى وضع جديد يهيء لهم الخبرة الدينية⁽¹⁾.

كان الصليبيون العائدون إلى أوروبا يحدثون إخوانهم عن الحياة الشرقية بحديث ملؤه الإعجاب، مما يجعلهم يتطلعون إلى حياة جديدة تسودها المبادئ الحرة، كما ساهمت الكتب التي ألفها بعض الصليبيين في صحوة المجتمع الأوروبي ومن هذه المؤلفات كتاب «حالة الشرقيين» الذي ألفه وليم الطرابلسي، تحدث فيه عن محمد ﷺ، ودرس سور القرآن الكريم، وذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق كل شيء، ويحترمون عيسى عليه السلام بصفته نبياً من الأنبياء⁽²⁾.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 4 / 4 ص 67.

(2) عهد السلام تدمري، الحياة الثقافية، ص 72-73.

لقد أدى شيوع التأثيرات الإسلامية سواء عن طريق العائدين من الشرق أو عن طريق الكتب المؤلفة عن المسلمين، أدى إلى معرفة الأوروبيين لمفهوم الإسلام وواقع المسلمين، فعرفوا أن الإسلام دين يدعو إلى عبادة الله وحده وإلى تحرير الشعوب من عبودية الإنسان، سواء كان إمبراطوراً أو بابا، فلا واسطة بين الله وعبده، وبدأ الناس يشعرون بضرورة تحسين الأوضاع في أوروبا، ويشربون ظهور مصلحين يضعون أسساً حضارية جديدة تبنى عليها النهضة الأوروبية.

ولما عاد ريتشارد قلب الأسد إلى إنجلترا بعد أن قاد الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق في سنة (1192) ميلادية، طلب منه مرافقوه الذين بهرتهم حضارة الشرق أن يسعى إلى تطوير البلاد لتواكب المدن الشرقية. وبدأ الإنجليز يطالبون بحياة سياسية تضمن لهم حرياتهم⁽¹⁾. وفي عام (1215) قامت في إنجلترا ثورة شعبية تطالب الملك حنا الأول⁽²⁾ بوضع دستور للبلاد، وبعد أن استفحل أمر الثوار واحتلوا لندن، اضطر الملك إلى التوقيع على العهد الأعظم في الخامس عشر من يونيو من العام نفسه. وهذا العهد يتكون من ثلاث وسنين مادة تنقسم إلى أربع مجموعات. المجموعة الأولى تشمل على مادة واحدة حددت العلاقة بين

(1) أحمد رضا بك، الحية الأدبية، ص 212.

(2) John I (1199-1216).

الكنيسة والدولة . المجموعة الثانية تتكون من خمسة عشر فصلاً تناولت العلاقات الإقطاعية بين الملك وأتباعه . المجموعة الثالثة تتألف من خمسة وثلاثين فصلاً ضمنت الإجراءات الحكومية الملكية التي تتبع في الفصل في القضايا المدنية بين الملك ورعاياه . وفي المجموعة الرابعة أقرت حقوق البارونات كاملة وأشهر فيها إلى تعيين لجنة من خمسة وعشرين باروناً لمراقبة تنفيذ مواد هذه الوثيقة⁽¹⁾ .

وقد تعهد الملك جون أن يمنح جميع الأحرار في مملكته كامل حرياتهم ، وأن لا يقبض على رجل حر ، أو يسجن ، أو يتزع ملكه ، أو يخرج من حماية القانون ، أو يتقي ، أو يؤذي بأي نوع من الإيذاء إلا بناءً على محاكمة عننية بموجب القانون . ويعتبر هذا العهد أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي ، كما أنه أساس الحريات التي يتمتع بها الإنجليز اليوم . وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة ضمنت حقوق رجال الدين إلا أن البابا أنوسنت الثالث وصفها بأنها باطلة وأمر جون بإلغائها⁽²⁾ ويبدو أن البابا اعتبر العهد الأعظم سابقة خطيرة تهدد مركزه ، لأن هذا العهد نبع أساساً من رغبة الشعب الإنجليزي ولم يصدر بقرار بابوي . وهذا يمهّد السبيل

(1) نظير حسان سعداوي ، تاريخ إنجلترا ، ص 95 .

(2) ول دورانت ، قصة الحضارة ، ج 4 / 4 ص 201-199 .

إلى إلغاء تدخلات البابا في شؤون الملك، وهذا ما تخشاه الكنيسة .

وامتدت المبادئ الحرة إلى صلب العقيدة النصرانية، وقام عدد من رجال الدين في أوروبا بانتقاد سابقهم من القضاء والقدر، والتثليث معتمدين في نقدهم على أقوال العلماء المسلمين، وأنكر بعضهم طقس الأفحار ستيًا⁽¹⁾ أي طقس القربان الذي تناول فيه النصراني خمرًا وخبزاً تمثيلاً لما رواه كتيبة الأناجيل عن عشاء المسيح الأخير مع الحواريين فيتجسد فيه المسيح وينحد معه حسب اعتقاد النصارى .

الصلبيون والإسماعيلية :

نشأت بين الصليبيين وإسماعيلية الشام⁽²⁾ اتصالات عديدة،

(1) أحمد رضا بك، الخية الأدبية، ص 101 .

(2) «الإسماعيلية» هي فرقة شيعية، سميت بهذا الاسم لأنها وفتت بسلسلة الأئمة عند إسماعيل الابن الأكبر ليعقوب الصادق وقد جعلوا الإمامة بعد جعفر لابنه إسماعيل الذي توفي في المدينة في سنة ثلاث وأربعين ومائة . وإسماعيلية الشام فرع من إسماعيلية فارس جاءوا إلى حلب في نهاية القرن الخامس الهجري أيام الأمير السلجوقي رضوان بن تمش، وقد ملكوا فلاحاً كثيرة في الشام أهمها الكهف، وقدموس، ومصيف وهم ينكرون صفات الله . ويقولون بأن الله لم يخلق انكون مباشرة بل خلق انعقل الذي هو عندهم الإله عملاً في مظاهره الخارجية، ولا يمكن لأحد حسب زعمهم - أن يصل إلى معرفة الله . وأركان الإسماعيلية ثلاثة : الإمام، والحجة وهو الذي يعهد إليه بالثبوت على صدق رسالة الأساس الذي هو =

فقد كان الإسماعيليون يحترفون اغتيال الزعماء المسلمين والصليبيين على حد سواء. إلا أن الدأوية والاسبتارية⁽¹⁾ لكونيهما منظمتين عسكريتين لم يخضعا لتهديد الإسماعيلية بل فرض أعضاء الدأوية والاسبتارية ضريبة عليهم، ولعل من الغريب أن يخضع الإسماعيليون لهاتين الجماعتين وهم الذين نشروا الإرهاب في الشام وقاموا باغتيال الزعماء على فرشهم، ولكنهم لا يتغذون عملية الإغتيال في أي زعيم إلا إذا تأكّدوا من أن ذلك سيخضع لمطالبهم. والدأوية والاسبتارية لا يؤثر فيهما موت زعيم من زعمائهما، وبالتالي فلا يمكن للإسماعيلية أن يستفيدوا من وراء الاغتيال، لذلك اضطروا إلى دفع إتاوة باهظة كانت تستنزف خزائنتهم⁽²⁾.

= علي، ثم ادّاعي، وعندهم أن اللجنة هي حالة النفس التي حصلت العلم الكامل، والتار هي الجهالة ويؤمنون بتناسخ الأرواح.
انظر (دائرة المعارف الإسلامية، ج 2 ص 187، 190-191، 195).

(1) Hospitalliers تأسست هذه المنظمة في القرن الحادي عشر الميلادي في مستشفى (القدس) يوحنا في القدس. وكانت مهمتها في بادئ الأمر علاج الحجاج النصارى القادمين من أوروبا وبعد استيلاء الصليبيين على القدس عام (1099) تطورت هذه الجماعة إلى منظمة عسكرية وكان القائم عليها فارس صليبي يدعى جيرارد Gerard وقد قام بإنشاء المشافي على طريق الحج، وبعد سقوط عكا عام 1291 انسحب الإسماعيليين إلى قبرص ثم إلى رودس ومالطا،
(Encycl. Brit. Micropaedia, Vol. VP, 148).

(2) انظر جوانفيل، القديس لوي، ص 204-205.

لقد حاول الزعيم الإسماعيلي راشد الدين ستان⁽¹⁾ أن يتخلص من ضريبة الداوية فأرسل في سنة تسع وستين وخمسمائة (وهي توافق 1173 ميلادية) وفداً إلى عموري الأول ملك بيت المقدس يخبره أنه وطائفته على استعداد للدخول في النصرانية مقابل أن يقوم الملك بوضع الضريبة عنهم . ويبدو أن الملك سرّه هذا العرض فوعدهم بالغايتها، إلا أن الداوية لا يهمهم التنصير مثل ما يهمهم جمع المال، لذلك اغتالوا رسل شيخ الجبل⁽²⁾.

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة (وهي توافق سنة 1197 ميلادية) قام شيخ الإسماعيلية الحسن بن راشد الدين بدعوة ملك القدس هنري كونت شامبانيا⁽³⁾ الذي مرّ بالقرب من معقل الإسماعيلية لزيارة قلعة مصيف⁽⁴⁾. وقد دهش هنري بما شاهده داخل القلعة، ورأى أحد أتباع شيخ الجبل وهو يلقي بنفسه من علو شاهق فيموت من أجل شبحه. وبعد هذه الجولة عاد الملك

(1) أبو الحسن راشد الدين ستان بن سليمان بن محمد، ولد بالقرب من البصرة وتلقى العلم في فارس؛ في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة إختاره الإمام حسن الألوتي إماماً لإسماعيلية الشام وقتل في هذه المرتبة إلى أن مات في سنة تسع وثمانين وخمسمائة. قام بتنظيم فرق الفدائيين الذين قاموا بأدوار الاغتيال (دائرة المعارف الإسلامية، ج 9 ص 469-488).

(2) متيفز رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ج 2 ص 641-642.

(3) Henry de Champagne (1197-1192). مات في عكا من جراء سقوطه من نافذة القصر.

(4) حصن مشهور للإسماعيلية على الساحل الشمالي قرب طرابلس (باتوت، معجم البلدان ج 5 ص 144).

الصلبي محملاً بالهدايا⁽¹⁾ . وكان الإمبراطور فريدريك بربروساً يدرك الدور الذي تقوم به الإسماعيلية في الشام، فبادر أثناء مكوثه في عكا في سنة (1127) ميلادية بإرسال مبعوثين إلى شيخ الجبل ومعهم هدية له .

ويبدو أن الإمبراطور الألماني، كان يهدف من هذه الإرسالية إلى دراسة منطقة الشرق من الناحية العسكرية، واستمالة قوى الحشاشين تمهيداً لقيامه بحملته الصليبية عام 1189 م، وقد رافقه فيها عدد من المؤرخين منهم Arnould von Lübeck الذي وصف طاعة الحشاشين لرؤسائهم واستماتتهم من أجله، حيث كانوا يعتقدون أن مفاتيح الجنة بيده⁽²⁾ .

ولما قدم ملك فرنسا لويس التاسع إلى عكا في سنة (1250) ميلادية وقد عليه أمير من الإسماعيلية ومعه أتباعه يطلب من الملك رفع الأتاوة التي يدفعونها للداوية والإسماعيلية . وكان يقف خلف الأمير شاب بيده ثلاثة خناجر وكأنه يهدد الملك إن رفض طلبهم، ومن ورائه شاب آخر يحمل قماشاً أبيض هو بمثابة كفن للملك . وأمام هذا المشهد المخيف أذن الملك للأمير الإسماعيلي بقراءة رسالة شيخ الجبل، فسأل الأمير الملك عما إذا كان يعرف

(1) سيقن رانسيمان، المرجع المذكور ج 3 من 165-166 .

(2) برنارد لويس، الحشاشون، ص 14-15 .

شيخ الجبل ، فأجاب الملك أنه لا يعرفه بل سمع عنه ، فأبدي الأمير تعجبه من الملك كيف يسمع بالشيخ ولا يسعى إلى نبيل صداقته كما فعل ملوك المسلمين والصليبيين ليظلمتنوا على أرواحهم . وطلب الأمير من الملك لويس إعفاءهم من تلك الضريبة وبذلك يحظى برضا الشيخ . إلا أن الملك طلب حضور الوفد الإسماعيلي بعد الظهيرة . فلما حضروا وجدوا عند الملك كبيرى الداوية والاستبارية اللذين عابا على الأمير الإسماعيلي جرأته على الملك وأمره أن يعود إلى شيخه ثم يأتي إلى الملك لويس بعد خمسة عشر يوماً ومعه هدايا قيمة . وقد عاد رسل شيخ الجبل ومعهم قميص الشيخ رمزاً للمودة حيث إن القميص ألصق بالجسد من غيره مثلما أن الملك لويس أقرب الملوك إلى نفس الشيخ . كما أرسل الشيخ خاتمه الذهبي وعليه اسمه ، وعبر عن تأييده للملك لويس وأنها أصبحت روحاً واحدة في جسدين ، وقد سرّ الملك بذلك وأرسل إيْفَ البريتوني⁽¹⁾ الذي يعرف العربية بهدية إلى شيخ الجبل⁽²⁾ .

(1) Yves de Breton

(2) جواتيل ، القديس لويس ، ص 203-205 .

وقد قال إيف البريتوني بعد عودته أن شيخ الجبل غير مؤمن
بمحمد (ﷺ) بل يؤمن بعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وأنه
أوحى إلى أتباعه بأن من يموت منهم في سيطه فإن روحه تحل في
جسد أحسن من جسده. لذلك يجد أتباعه متعة وهم يضحون
بأنفسهم من أجل شيخهم اعتقاداً منهم بأن أرواحهم تنصيح في
حال أفضل من حالهم الحاضرة⁽¹⁾.

كما قال إيف إنه عشر عند شيخ الجبل على كتاب فيه عبارات
قالها المسيح للمقديس بطرس، فسأل الشيخ أن يداوم على قراءته
فذكر له الشيخ أنه يكن لبطرس احتراماً خاصاً لأنه روح هايبيل
حلت فيه بعد حلولها بنوح ثم في إبراهيم.

ويحدثنا الرحالة اليهودي بنيامين التظلي الذي زار الشام في
القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، عن الإسماعية
بأنهم زنادقة لا يؤمنون برسالة محمد وهم يطيعون شيخهم طاعة
عمياء⁽²⁾.

أما بوركارد الذي أرسله الإمبراطور فريدريك إلى مصر
والشام في سنة (1175) ميلادية فقد تسنى له رؤية الإسماعية في

(1) المصدر نفسه ص 207.

(2) بنيامين التظلي «الرحلة» ص 87-88.

فلاعهم . ويحسن بنا أن نورد نصاً من كلامه عنهم ، فقد قال :
 فلاحظ أنه يوجد عند تخوم دمشق وأنطاكية وحلب جنس معين
 من العرب يعيشون في الجبال ويسمون أنفسهم بالحشاشين . . .
 وهم يأكلون لحم الخنزير الذي تُحرّمه شريعة العرب ، ويأتون
 المحارم من أمهاتهم وأخواتهم ، ويعيشون في الجبال في شبه منعة
 كاملة وراء أسوار قلاعهم الحصينة . . . ولهم سيد يُلقب أُمّد
 الرعب في قلوب كل الأمراء العرب القريبين والبعيدين على
 السواء وكذلك يخشاه الحكام المسيحيون المجاورون لهم ، لأن من
 عادته أن يقتلهم بطريقة ندعو للدهشة⁽¹⁾ .

«وهذه الطريقة كالتالي : هذا الأمير يملك في الجبال عديداً من
 القصور بالغة الجمال تحيطها أسوار عالية جداً بحيث لا يستطيع
 أحد الدخول إلا عبر باب صغير عليه حراسة مشددة، وفي هذه
 القصور يربي عدداً من أبناء الفلاحين الذين يؤخذون منذ
 طفولتهم المبكرة، وهناك يجري تعليمهم لغات مختلفة . . .
 وهؤلاء الشبان الصغار يلقنهم معلموهم من شبابهم المبكر إلى
 رجولتهم الكاملة أن عليهم أن يطيعوا سيّد القلعة في كل ما يقوله
 أو يأمر به ، وأنهم إذا فعلوا ذلك فإنه - وهو المسيطر على جميع

(1) برنارد لويس ، الحشاشون ، ص 14 .

الآلهة - سوف يهيمهم مَسْرَات الفردوس ، وهم يلقنون كذلك أن لا أمل لهم في النجاة إذا قاوموا إرادته في أي شيء ، ولاحظ أنهم منذ الإتيان بهم أطفالاً لا يرون أحداً سوى معلمهم وأسيادهم ولا يحصلون على أي تعليم آخر ، وفي الوقت المناسب يجري استدعاؤهم إلى حضرة الشيخ ، وعندما يكونون في حضرته يسألهم عما إذا كانوا راغبين في إطاعة أوامره من أجل أن يمنحهم نعمة الفردوس ، وعندئذ يتفدون ما تلقنوه بدون اعتراض أو ريب فيرمون بأنفسهم تحت قدميه ويجيبون بحماسة أنهم سوف يطيعونه في كل ما يأمر به . وحينئذ يقوم الشيخ بإعطاء كل منهم خنجراً ذهبياً ويرسلهم لقتل من يشاء من الأمراء⁽¹⁾ .

والإسماعيلية جمعية سرية ، لها عقائدها الخاصة وتعتمد على نظام المراتب والدرجات ، ويطلق على كيانها الدعوة ، ويسمى القائمون عليها «الدعاة»⁽²⁾ ، وقد اهتم الإسماعيليون بنشر دعوتهم في الشام بين المسلمين والصلبيين . وكما ذكر بوركارد فإنهم يحرصون على الأطفال ليقتنواهم منذ الصغر بتعاليمهم الخاصة .

(1) برنارد لويس ، الحشاشون ، ص 14-15 .

(2) المرجع نفسه ص 95-96 .

روي عن الإسماعيلية أنهم أسروا في سنة ثمان وستمائة (وهي توافق سنة 1211 ميلادية) اثنين من القساوسة لهما معرفة بتحضير الأرواح ، ولما مثلاً أمام شيخ الجبل أوحى إليهم بأن الله لن يعيد الأرواحي المقدمة إلا على يد أطفال أبرياء ، ثم أخلى سبيلهما بعد أن اشترط عليهما القيام بحملة صليبية قوامها من الأطفال . ومن المعروف أن هناك حملة معروفة بحملة الأطفال خرجت من أوروبا عام (1212)⁽¹⁾ . ولكن هؤلاء الأطفال لم يصلوا إلى الشرق بل باعهم تجار إيطاليا في أسواق تونس ومصر .

لقد كان هناك أفراد صليبيون يتصلون بالإسماعيلية إما بهدف التعرف على مذهبهم ، أو من أجل أغراض أخرى ، وقد ورد أن فارساً صليبياً يدعى جيوم دو مونبار⁽²⁾ كان قد تلقى تعاليم الإسماعيلية على شيخ من شيوخهم كان مقيماً في مغارة في جبل لبنان . وعلى الرغم من أن فرسان الهيكل كانوا يفرضون ضريبة على الإسماعيلية ، إلا أنهم تأثروا بهم ، فترىوا بزي الإسماعيلية ذي اللونين الأبيض والأحمر ، واتخذوا نظام المراتب الثلاث فقسموا أنفسهم إلى مبتدئين ومنتهين وفرسان على ثلث مراتب

(1) انظر أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص 302 .

(2) Guillaume de Monbar .

الإسماعيلية الفداوية والرفاق والدعاة، كما أطلقوا على زعيمهم لقب «السيد الأعظم» وهو لقب شيخ الإسماعيلية⁽¹⁾.

ومن خلال الهيكلين تسربت إلى أوروبا الأساليب السرية التي كان الإسماعيلية يتبعونها مع أعضائهم، فقد كانت لديهم تعاليم للعامّة وأخرى للخاصة، ولخاصة الخاصة تعاليم سرية، وهناك أسرار الجمعية لا يعلمها إلا زعمائها، ولا يصل إلى مرتبة الزعامة أحد إلا بعد أن يجتاز امتحاناً عسيراً ويقسم اليمين على كتم السرّ والوفاء للجمعية. وإضافة إلى ذلك فللإسماعيلية طرقهم في استخدام الحروف والرموز التي تدلّ على معان سرية مفهومة لديهم فقط. وهذا ما أخذه الماسونيون وطبقوه في محافلهم⁽²⁾. ويعتبر الماسونيون فرسان الهيكل من أجدادهم العظام، فهم يقدمون هيكل سليمان لأنه رمز مقدس لدى اليهود الذين صنعوا الماسونية، ولأن نظمهم السرية المتأثرة بنظم الإسماعيلية جاءتهم عن طريق فرسان الهيكل، فلا عجب أن يكتب الماسونيون في شهادة الدرجة الثالثة والثلاثين عبارة (فارس الشرق وصاحب الحسام، أمير بيت المقدس، فارس الشرق والغرب، فارس الصليب الوردي، رئيس المعبد، القائد الأعظم للهيكل المقدس)⁽³⁾.

(1) أسامة زكي زيد، المرجع نفسه ص 253.

(2) قاسم السامرائي، أصول الماسونية، ص 6-7.

(3) نفسه ص 7، 19 لويس شيخو «السرّ المصون»، ج 1 ص 11.

الكنيسة والمذاهب الجديدة:

حمل الصليبيون إلى أوروبا كثيراً من عقائد الشرق إسلامية، وغير إسلامية كالمناوية⁽¹⁾ التي دخلت في القرن الثالث الميلادي. وأدت الأفكار الجديدة التي انتشرت في أوروبا إلى ظهور فرق متأثرة بالعقائد الشرقية. وما إن انتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى أصبحت أوروبا تعج بمذاهب جديدة، وكان في ميلانو⁽²⁾ وحدها سبعة عشر مذهباً، وقد عبر أحد القساوسة عن قوة انتشار هذه الجماعات بقوله: «إن المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين»⁽³⁾.

ومن هذه الفرق جماعة الوالدونسيين⁽⁴⁾ التي شكلها بطرس والدو⁽⁵⁾ سنة (1170) ميلادية، وكانت في بداية الأمر مجموعة من الرهبان تدعو إلى حياة الزهد والتقشف، وبعد زمن تحولت هذه الفرقة إلى حركة معادية لرجال الدين، ونشرت مبادئها

(1) عقيدة ثنوية ابتدعها فارسي يدعى ماني Mani (216 - 274)، تأثر بالزرادشتية وقال بأن الكون خاضع لبدا الحير رائشر، والدة والروح. انتشرت تعاليمه في فارس والهند (Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. P. 556).

(2) Milano

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، ج 5 / 4 ص 74 - 75.

(4) Waldensens

(5) Pater Waldo (المتوفى عام 1217).

الجديدة، فأنكرت بعض الطقوس النصرانية، ودعت إلى أن تكون جميع الأشياء ملكاً مشاعاً بين الناس. وكان مركزها جنوب فرنسا إلا أنها انتشرت في أسبانيا وألمانيا، وقد صدر عام (1184) قرار بحل هذه الجماعة، وقد تعرض كثير منهم للحرق والتعذيب⁽¹⁾.

وكان انباتريلي أو البتريائيون⁽²⁾ نسبة إلى حي في ميلانو يسمى باتاريا⁽³⁾، أهم الفرق التي ظهرت في هذه المدينة. وقد تألفت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي من أصحاب الحرف والتجار والفلاحين. وعملت على محاربة الفساد المنتشر بين رجال الكنيسة. وقد كانت هذه الحركة دافعاً لحركات إصلاحية أخرى قامت في الفترة التي بدأ فيها تدهور النظام الإقطاعي وازدهار الطبقة الوسطى⁽⁴⁾.

وظالب أحد زعماء هذه الفئة بمصادرة أملاك الكهنسيين، وقد قوبلت من قبل الكنيسة بالإجراءات الشديدة، ومع ذلك فقد

(1) ول ديورانت قصة الحضارة ج 5 / 4 ص 77.75.

(2) Patarioli (Patarines).

(3) Pataria.

(4) ول ديورانت المرجع المذكور ج 5 / 4 ص 77.

Enycl. Brit. Micropædia. Vol. VII. P. 793.

استمرت هذه الجماعة تدعو إلى مبادئها. ففي سنة (1273) ميلادية
جهروا بسبب البابوية، واقتحموا الكنائس ودنّسوها⁽¹⁾.

ومن هذه الفرق أيضاً فرقة الكاثاري⁽²⁾ أي الأَطهار وكانت
أقوى الفرق التي ناهضت الكنيسة، ويقسم أتباعها الكون
كالماتويين إلى الخير وهو الله والروح والسماء، والشر وهو
الشیطان والمادة والعالم المادي، وهم يعتقدون بأن الشيطان هو
خالق العالم المرئي، وأن المادة كلها شرٌ حتى الصلب الذي مات
عليه المسيح كما يزعمون. وحرّم الكاثاري الزواج لأنه مدعاة
للاتصال الجسدي، والجسد مادة. وحرّموا كذلك قتل الحيوان،
وأكل اللحوم، والبيض ومنتجات الألبان، واقتصروا في غذائهم
على السمك والنبات⁽³⁾.

وأفراد هذه الطائفة يقولون بأن المسيح ملك من الملائكة لم
تلده مريم وليس هو الله، وأنكروا الثالوث، والعشاء الرباني،
والقدّاس، وتعظيم صوم القديسين، وهم لا يؤمنون بوجود النار
لأن الروح حسب عقيدتهم تمر في عدة أدوار من التناسخ كقبيلة بأن
تطهرها من الذنوب⁽⁴⁾.

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، ج 4 / 5 ص 77.

(2) Cadure .

(3) ول ديورانت، المرجع السابق، ج 4 / 5 ص 79-78.

(4) المرجع نفسه، ج 4 / 5 ص 79، 80.

ونظور أمر هذه الفرقة إلى القدح بالبابا الذي وصفوه بأنه المسيح الدجال، وأن رجال زمرة الشيطان وأعدائه . ونقوا أن تكون الكنيسة كنيسة المسيح وقالوا: إن بطرس لم يعلّم أرض روما، وقالوا: إن البابوات الذين يقطنون في قصور فخمة وضياع شاسعة لا يمكن أن يكونوا خلفاء للمسيح الذي لم يجد موضعاً لرأسه فهم خلفاء للأباطرة . ونددت هذه الجماعة بدعاة الحروب الصليبية ووصفتهم بالقتلة، والقتل عتدهم محرم ولو كان للأعداء⁽¹⁾ .

هذه الآراء التي أعلنتها فرقة الكاثاري انتشرت في سائر أوروبا فقد تغنى بها الشعراء وأخذ الناس يرددون الأغاني الشعبية التي تتضمن بعضاً من آراء الكاثاري، وشن الشعراء والكتاب حملة على رجال الكنيسة ووصفوهم بأنهم خونة، منافقون كاذبون، ووصفوا الكنائس بأنها أوكار اللصوص⁽²⁾ . وكان من القصائد التي شاعت بين الناس قصيدة عنوانها «الإنجيل حسب الماركات الغضبية» مضمونها اتهام رجال الدين بأنهم يأخذون الرشوى ويتاجرون بصكوك الغفران⁽³⁾ .

(1) ول ديورانت، المرجع نفسه، ج 4 / ص 80 .

(2) المرجع نفسه، ج 4 / ص 81 .

(3) المرجع نفسه، ج 4 / ص 71 - 72 .

وفرقة الأظهار هذه كانت واحدة من فرق كثيرة خرجت على الكنيسة وتآلفت حول مدينة ألبى في جنوب فرنسا فنسبت إليها وعرفت بالفرق الأليجنسية⁽¹⁾. وقد رأيت البابوية أن محاربة هذه الفرق لا تقل أهمية عن محاربة المسلمين في فلسطين لأنها تشكل خطراً على مستقبل الكنيسة في أوروبا، وهذا ما حدث فعلاً في القرون اللاحقة لهذه الفترة⁽²⁾.

وقد عبر البابا أنوسنت الثالث عن مخاوفه من هذه الجماعات بقوله: «إن قارب القديس بطرس الصغير تتقاذفه أمواج البحر، ولكن أشد ما يحزنني ويقض مضجعي... أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلاً في تحررها من جميع القيود، وفي شدة أذاها. قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين، وأخذت توقع نفوس السذج من الناس في حبالها، وتفسد بخرافاتهما ويدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية»⁽³⁾.

وقد أمر البابا أنوسنت الثالث بشن حرب صليبية ضد الأليجنسيين أزهدت فيها الأرواح ودمرت من جاراتها مدن

(1) Albigois نسبة إلى مدينة ألبى.

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، ج 5 / 4 ص 83.

(3) المرجع نفسه.

كثيرة⁽¹⁾ ولكن ظلّ كثير منهم ملتزمين بأفكارهم على الرغم من مقاومة رجال الدين لهم، وكان ملك فرنسا لويس التاسع الملقب بالقدّيس يحقت هذه الجماعة لأنهم كثيراً ما يسألون عن أشياء في صلب العقيدة النصرانية - لم يقتنعوا بها - ويحتاجون إلى تفسير لها. فلا يجد الكنسيون جواباً غير وصفهم بالكفر والمروق من الدين⁽²⁾.

هذه الحركات على الرغم من تعدد آرائها ومبادئها، إلا أنها في مجملها دعت إلى تحرير الشعوب الأوروبية من هيمنة الصبغة الكنسية. هذه الطبقة التي استغلت مناصبها الدينية لتحقيق مآربها الخاصة، وفرضت على المجتمع قيوداً منعت من التطور والإبداع. وكانت البابوية حينما دعت إلى الحروب الصليبية تظن أنها بذلك تصنع فوة لها في الشرق، غير أن النتائج كانت بخلاف ما توقعه رجال الدين. حقاً لقد انتصر الصليبيون في بادئ الأمر ولكنهم وقعوا أسرى الحضارة الإسلامية بجوانبها المختلفة، وعاد الكثيرون منهم إلى بلدانهم ينشرون ما تعلموه من المسلمين وما رأوه في الشرق من مظاهر حضارية.

وهذه الصور الرائعة لشرق، التي تناقلها العائدون إلى مدنهم

(1) المصدر نفسه ص 86.

(2) نظر: جوفيل، القدّيس لويس، ص 45.

الأوروبية، جعلت الناس يتلهفون إلى حضارة مماثلة وتأثرت جماعات منه بالمبادئ الشرقية سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية، مكونين أفكاراً ونظريات أسسوا عليها مذاهبهم. وإزاء هذا التطور الخطير عمدت الكنيسة إلى مكافحة هؤلاء بكل ما ملكت من أساليب. وشتت عليهم حروباً صليبية. ومع ذلك لم تستطع القضاء على مبادئهم رغم القتل والتشريد.

وفي الشرق تعرضت الجيوش الصليبية التي يباركها البابا إلى هزائم متعددة ولم تؤد إلى تنصير المسلمين، الأمر الذي جعل رجال الكنيسة يفكرون بأسلوب جديد يحمي النصارى من المؤثرات الإسلامية من جهة، ومن جهة أخرى يضمن انتشار النصرانية بين المسلمين، فأرسلت الكنيسة وعاظماً إلى الجماعات المناوئة لها. ويبدو أن فكرة التنصير قد استهوت الكنسيين وبخاصة الذين عاشوا في الشرق، وقرأوا التاريخ الإسلامي وما فيه من صفحات رائعة من انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وفي خارجها من الأقاليم الشامية. هذا الانتشار الذي تم بالحكمة والمرعظة الحسنة. ومن هؤلاء وليم الطرابلسي أسقف عكا الذي قال: «أريد مرسلين لا جنوداً لاسترداد الأرض المقدسة»⁽¹⁾.

(1) ليليب حتمي، تاريخ لبنان، ص 394 - 395.

في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بدأت الرهبنة تنتشر في الشام ، ففي عام (1134) أسس راهب صليبي الرهبنة الكرملية في جبل الكرمل ، وقد انتشرت في الشام وأسست لها مركزاً في طرابلس . وفي القرن الثالث عشر جاءت إلى فلسطين إرساليات فرنسيسكانية⁽¹⁾ ودومنيكانية⁽²⁾ ، ففي عام (1219) قدم إلى الشرق (القدس) فرانشيسكو داسيسي وأسس بعد قدومه بسنتين الرهبنة الفرنسيسكانية في عكا ثم انتشرت في طرابلس وبيروت⁽³⁾ .

وقد مارس فرانشيسكو المنتصير في مصر مع الملك الكامل حيث عرض عليه النصرانية ، وطلب من الملك أن توّقه له نار

(1) Franciscans رهبنة أسسها فرانشيسكو داسيسي Francesco d'Assisi (1182-1226) في سنة 1207 . وفي عام 1209 حصل فرانشيسكو على اعتراف البابا أنوسنت الثالث ، وقد كثر عددهم حتى بلغ خمسة آلاف خلال تسع سنوات . وقد وضع فرانشيسكو نظاماً لهم حظي بتأييد من البابا هونوريوس الثالث عام 1123 ، وانتشر أعضاء هذه الرهبنة في كثير من المدن الأوروبية وفي فلسطين .

Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. IV. P. 273-274.

(2) Dominicans رهبنة كونها (القدوس) دومنيك St. Dominique (1170 - 1221) في عام 1215 في تولوز ، وفي 22 ديسمبر عام 1216 اعترف البابا هونوريوس الثالث بأخويته . وفي سنة 1218 بعث دومنيك أتباعه للدراسة في جامعات أوروبا وقد تأثر بهم كثير من الطلاب ثم انتشرت هذه الرهبنة في العالم الإسلامي .

(Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. III. P. 614-615)

(3) فيليب حتي ، تاريخ لبنان ، ص 394 - 395 .

ليدخل فرانشيسكو منها فإن خرج حياً كان على الملك أن يتعبر .
ولكن الملك الكامل رفض هذا الرهان . عطفاً منه على هذا
الراهب ، لتلا يكون وقوداً للنار ، فأمر جنوده بإيصال هذا الرجل
إلى قومه المرابطين بدمياط⁽¹⁾ .

وفي عام (1230) وصلت إلى الشام إرسالية دومنيكانية للقيام
بنشر النصرانية بين المسلمين ، وكان لها انتشار واسع في
فلسطين⁽²⁾ . وفي عام (1253) أنشأ البابا أنوسنت الرابع أول
مجتمع تنصيري مهمته نشر النصرانية بين المسلمين ، إلا أن تطوير
الأسلوب التنصيري جاء على يد ريموندل⁽³⁾ وهو من أصل
إسباني كان قد تعلم اللغة العربية واطلع على التراث الإسلامي ،
وقد أعد خطة لتنصير المسلمين عرضها على البابا سلسطين
الخامس⁽⁴⁾ وفي هذه الخطة ركز ريموندل على أن تتخذ الكنيسة
العلم والمدارس وسيلة للتنصير . وقد فحس لهذه الفكرة وقام
بتدريب زملائه الرهبان على كيفية نشر النصرانية بالطرق السنية
وبوساطة الحب والصلوات وانهمار الدموع ، والأعمال الإنسانية ،

(1) ول ديورانت قصة الحضارة، ج 4 / 4 ص 131 .

(2) فليب حتي ، تاريخ لبنان ، ص 394 - 395 .

(3) Raymond Lull (1233 - 1315 م) .

(4) Celestine V (1294 - 1296 م) .

وبعد عشر سنين من إعداد خطته قام ريموند بمحاولة تنصير المسلمين في الشرق وشمال إفريقيا. واتصل بانتار بدعوتهم إلى دينه وكان يحث البايوات على العمل من أجل التنصير. وبالطاح وافقت البايوية على إنشاء ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية⁽¹⁾.

«تم انكتاب والحمد لله رب العالمين»

* * *

(1) محمود الجوري، الأوضاع الحضارية، 254-255.

Vertical text on the right edge of the page, possibly a page number or header.

Vertical text on the right edge of the page, possibly a page number or header.

المصادر (*)

(*) هذه العلامة، تعني أن المصدر أو المرجع أضيف أثناء إعداد الكتاب للطبع عام 1414هـ.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن
محمد الجزري، المتوفى سنة 630 هـ: الكامل في التاريخ .
دار صادر ودار بيروت - بيروت 1966 م).

ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس بن أحمد بن القاسم
السعدي الخزرجي، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ: عيون الأنباء في
طبقات الأطباء . تحقيق نزار رضا . دار مكتبة الحياة - بيروت
1965).

ابن بسام (محمد بن أحمد المحاسب، عاش قبل سنة ٨٤٤ هـ:
نهاية الرتبة في طب الحسية تحقيق حسام الدين السامرائي .
مطبعة المعارف - بغداد 1968 م).

ابن العماد الحنبلي (عبد أخي بن أحمد بن محمد العسكري الحنبلي
الدمشقي، المتوفى سنة 1089 هـ: شذرات الذهب في أخبار
من ذهب^(١٠) (1 - 10) تحقيق محمود الأرنؤوط، بإشراف
عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت،
1406 - 1414 هـ).

البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد، المتوفى سنة 629 هـ:
الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر . ب . م ، ب . ت).

البَقَوِي (خالد بن عيسى، المتوفى سنة 780 هـ: المشرق في تحلية
علماء المشرق. تحقيق الحسن السائح. مطبعة فضالة المحمدية
(المغرب). ب. ت.

البُنْدَارِي (أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد البنداري
الأصفهاني، المتوفى سنة 643 هـ: سنا البرق الشامي.
اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني،
المتوفى سنة 597 هـ. تحقيق فتحية التبركوي مطبعة الجبلاوي،
القاهرة 1979 م).

بنيامين التطيلي (بنيامين بن بونة النباري الأندلسي، المتوفى سنة
569 هـ: الرحلة: ترجمة عزرا حداد. المطبعة الشرقية - بغداد
1945 م).

الجبلي العَلِمِي (عبد الرحمن بن محمد العَلِمِي المقدسي، المتوفى
سنة 928 هـ: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. تقديم
محمد بحر العلوم. المطبعة الحيدرية - النجف 1968 م).

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني، المتوفى سنة
614 هـ: تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار. المعروفة برحلة
ابن جبير. دار الكتاب اللبناني بيروت. ب. ت).

جوانفيل (جان دو جوانفيل، المتوفى سنة 1317 م: القديس
لويس: حياته وحملاته على مصر والشام. ترجمة حسن
حشي دار المعارف. القاهرة 1968م).

ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون
الحضرمي الإشبيلي، المتوفى سنة 808 هـ: العبر وديوان
المتبدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم،
من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون،
مؤسسة الأعلمي بيروت 1971 م).

ابن سينا (أبو علي الحسن بن عبد الله، المتوفى سنة 428 هـ:
القانون في الطب. الكتاب الثاني في الأدوية المفردة من
المجلد الأول. طبعة جديدة أخذت عن طبعة بولاق
1294 هـ). دار صادر. بيروت ب. ت).

أبو شامة المقدسي (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن
إسماعيل، المتوفى سنة 665 هـ: الروضتين في أخبار
الدولتين. مطبعة وادي النيل. القاهرة 1288 هـ).

ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع، المتوفى سنة 632 هـ:
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين).

تحقيق جمال الدين الشَّيْبَان . الدار المصرية للتأليف
والترجمة . القاهرة 1964 م).

الشيْزري (عبد الرحمن بن عبد الله الشافعي ، المتوفى سنة 589 هـ :
نهاية الرتبة في طلب الحسبة . تحقيق السيد الباز العريني .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1446 م).

الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين ، المتوفى سنة 872 : زبدة
كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك . تصحيح بولس
راويس . المطبعة الجمهورية . باريس 1894 م).

ابن العبري (أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون الملقب ، المتوفى سنة
685 هـ : تاريخ مختصر الدول . وضع حواشيه الأب أنطون
صالحاني اليسوعي . المطبعة الكاثوليكية . بيروت 1958 م).

علي بن عباس المحوسي (المتوفى حوالي سنة 400 هـ : كامل
الصناعة الطبية المعروف بالملكي . المطبعة الكبرى . القاهرة
1294 هـ).

ابن قاضي شهبة (بدر الدين أبو الفضل محمد ، المتوفى سنة
874 هـ : الكواكب الدرية في السيرة النورية تحقيق محمود

زايد . دار الكتاب الجديد / بيروت 1971 م).

الكتاب المقدس (دار الكتاب المقدس . القاهرة 1969 م).

المؤلف مجهول (أعمال الفرنبجة وحجاج بيت المقدس . ترجمة
حسن حبشي . دار الهدى للطباعة . القاهرة 1958 م).

المقرئزي (تقي الدين أحمد بن علي الحسيني العبيدي ، المتوفى سنة
845 هـ : السلوك لمعرفة دول الملوك . تحقيق محمد مصطفى
زيادة . مطبعة دار الكتب المصرية . القاهرة 1934 م).

ابن منقذ (أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن
منقذ الكتّاني الكلبي أنشيزري ، المتوفى سنة 584 هـ :
الاعتبار . حرره فيليب حتي . مطبعة جامعة برنستون
1930 م).

ابن النديم (محمد بن اسحق بن محمد بن اسحق ، المتوفى سنة
438 هـ : الفهرست دار المعرفة - بيروت . ب . ت).

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ، المتوفى سنة 697 هـ :
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . تحقيق حسين محمد
ربيع . مطبعة دار الكتب . القاهرة 1972 م).

وليم الصوري، الحروب الصليبية^(*) ترجمة حسن حبشي . الهيئة
المصرية العامة للكتاب القاهرة 1919م).

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي الرومي
البغدادي، المتوفى سنة 626 هـ: معجم البلدان . دار إحياء
التراث العربي . بيروت . ب.ت).

المراجع العربية



أحمد شلبي (الحروب الصليبية إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب) (دراسات في الإسلام . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) العدد 62، السنة السادسة (31 أغسطس 1966م).

أسامة زكي زيد (الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، مطبعة مصنع الإسكندرية للكراس . الاسكندرية 1980م).

أمين الخولي (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية . مطبعة الأزهر . القاهرة 1939م).

جلال مظهر (أثر العرب في الحضارة الأوروبية . دار الرائد . بيروت 1967م).

جمال الدين الشبلي (التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر الأوروبي في عصر النهضة . دار الثقافة القاهرة . ب . ت).

جورج حداد (المدخل إلى تاريخ الحضارة . مطبعة الجامعة السورية . دمشق 1953م).

جوزيف نسيم يوسف (العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى . دار النهضة . الطبعة الثالثة . بيروت 1981 م
مكتبة الحروب الصليبية 1) .

حسن حيشي : (مقدمة كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس) ، انظر المصادر ص 192) .

خير الدين الزركلي (الأعلام . تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين . دار العلم للملايين . بيروت . الطبعة الخامسة 1980 م) .

دائرة المعارف الإسلامية (ترجمة محمد ثابت الفتدي وآخرين . طهران ب . ت) .

زكي النقاش (العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية . دار الكتاب اللبناني . بيروت 1958 م) .

سعيد عبد الفتاح عاشور

- أعضاء جديدة على الحروب الصليبية . دار انقلم . القاهرة
1964 م (المكتبة الثقافية 118)

- الحركة النصليبية . مطابع سجل العرب . القاهرة . الطبعة الثانية 1971 م .

- أوروبا العصور الوسطى . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة . الطبعة السادسة 1975 م .

- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى . دار الأحمد . بيروت 1977 م .

القلمماوي سهير القلمماوي ومحمود علي مكي (٤) انشعر الغتاني : فصل في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة . المطبعة الثقافية . القاهرة . 1970 . ص 23 - 69) .

السيد الباز العويني (مؤرخو الحروب الصليبية . دار النهضة العربية . القاهرة 1962 م) .

السيد عبد العزيز سالم (التاريخ والمؤرخون العرب . شركة الاسكندرية 1967) .

طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي . مطابع رمسيس الإسكندرية 1967 م .

عباس محمود العقاد (أثر العرب في الحضارة الأوروبية . دار
المعارف . القاهرة . الطبعة الثانية 1963 م) .

عبد الحميد منتصر (تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه .
دار المعارف . القاهرة 1980 م) .

عبد العظيم رمضان (الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور
الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ، دار المعارف . القاهرة .
ب . ت) .

عبد المقادر أحمد اليوسف (العصور الوسطى الأوروبية . المكتبة
العصرية . صيدا وبيروت 1967 م) .

علي حسني الخربوطلي (الإسلام وأهل الذمة (سلسلة التعريف
بالإسلام . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 49) . القاهرة
1969 م) .

علي الغمراوي (الأصول المعجمية مع شواهد من كتاب الحشائش
والسموم نقل إسحاق بن باسيل عن كتاب ديسقوريدس في
هيولى الطب . . . De Materia Medica (دراسة في المنهج
التطبيقي لتاريخ الطب) . القاهرة 1979 .

- أثر الثقافة الإسلامية في الفكر الأوروبي (محاضرة في كلية
الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام
1403هـ).

عمر عبد السلام قديمري (الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور
الوسطى . دار فلسطين . بيروت 1973 م).

عمر فروخ (الحضارة الإنسانية ونسب العرب فيها . دار لبنان .
بيروت . الطبعة الثانية 1400 هـ).

عمر كمال توفيق (المؤرخ ولیم الصوري): مقالة في مجلة كلية
الأداب بجامعة الإسكندرية . العدد 21 سنة 1967 م . مطبعة
جامعة الإسكندرية 1968 م . ص 181 - 200).

قاسم السامرائي (أصول الماسونية التاريخية وموقفها من الإسلام
محاضرة في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود
الإسلامية عام 1402 هـ).

لويس شيخو (الأب) (السّرّ المصون في شعبة الفرماسون . المطبعة
الكاثوليكية - بيروت . الطبعة الثالثة 1910 م).

محمد جميل بيهم (فواصل العربية ومراكبها . مطبعة انكشاف .
بيروت 1948 م) .

محمد سمير عبد الحميد (من أثر العرب الأدبي على كُتَّاب
الرومانتيكية في إنجلترا) مقالة في مجلة الأزهر . رجب
وشعبان عام 1386هـ . ص 574 - 580) .

محمود محمد علي الحويدي (الأوضاع الحضارية في بلاد الشام
في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . دار المعارف . القاهرة ،
1979) (وقد اعتمدت على الرسالة لا على الكتاب) .

مریم البغدادي (شعراء التروبادور . مطابع النصر جدة 1401هـ) .

الموسوعة العربية الميسرة (دار نهضة لبنان . بيروت 1981 م) .

نجيب العقيقي (المستشرقون . دار المعارف . القاهرة الطبعة الرابعة
1980م) .

نقولا زيادة (رواد الشرق العربي في العصور الوسطى . مطبعة
المقتطف . القاهرة 1943 م) .

* * *

قائمة المراجع المترجمة

1
.

أحمد رضا ملك (الخبيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق . ترجمة
محمد بوقببة ومحمد الصادق الزمرلي . دار بوسلامة .
تونس الطبعه الثانيه 1977م) .

أرنست باركر (الحروب الصليبية . ترجمة السيد الباز العريني .
دار النهضة بيروت . الطبعه الثانيه 1967م) .

الدوميللي (العنم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي . ترجمة
عبد الحلیم النجار ومحمد يوسف موسى . دار القلم .
القاهرة 1962م) .

أمين أسعد خير الله (الطب العربي : ترجمة مصطفى أبو عز
الدين . المطبعة الأميركية . بيروت . 1946م) .

أودين كالفيولي («الدين الإسلامي» : فصل في كتاب الشرق
الأدنى مجتمعه وثقافته . تأليف كويلرغ . ترجمة عبد الرحمن
محمد أيوب . مطبعة الرسالة . ب . ت . ص 162 - 187) .

برنارد لويس (الغرب في التاريخ . ترجمة نيه فارس ومحمود
يوسف زايد . دار العلم للملايين بيروت 1954 م .

الحشاشون. فرقة ثورية في تاريخ الإسلام. ترجمة محمد
العزب موسى. دار المشرق العربي الكبير. بيروت
1980م).

بيريل سمالي (المؤرخون في العصور الوسطى). ترجمة قاسم عبده
قاسم. دار المعارف. القاهرة 179 م).

جاك. س. ريسلر (الحضارة العربية). ترجمة فنيح عبدون وأحمد
فؤاد الأهواني. الدار المصرية للتأليف والترجمة. ب. ت.

جوزيف جارلند (قصة الطب). ترجمة سعيد عبده. دار المعارف.
القاهرة. 1959 م.

الأستاذة الدكتورة
السيد محمد عفيف

حيدر يامات (مجالى الإسلام). ترجمة عادل زعيتر. مطبعة دار
إحياء الكتب. القاهرة 1956 م).

روم لانيو (الإسلام والعرب). ترجمة منير البعلبكي. دار العلم
للملايين. بيروت 1962 م).

زيغريد هونكة (شمس العرب نسطع على الغرب). ترجمة فاروق
بيضون وكمال دسوقي. دار الآفاق الجديدة. بيروت.
الطبعة الخامسة 1981 م).

مونتغمري واط (أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا .
ترجمة جابر أبي جابر . منشورات وزارة الثقافة . دمشق
1981م).

هـ . ل . فشر (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ترجمة محمد
مصطفى زيادة والسيد الباز العريني . دار المعارف . القاهرة
1950 م).

هرنشو (علم التاريخ . ترجمة عبد الحميد العبادي مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1937 م).

ول ديورانت (فصحة الحضارة . ترجمة محمد بدران . مطبعة لجنة
التأليف والترجمة والنشر - القاهرة . الطبعة الثانية 1967 م).

* * *

قائمة المراجع الأجنبية



- **BARRET / GURGAND**, Si Je t'oublie Jérusalem. Hachette. Paris 1982*
- **CASTRIES**, La Conquête de la Terre Sainte, Par les croisés* Albin Michel-Paris 1973.
- **DOZY (Reinhart) ENGELMAN (W.H)** : Glossaire des mots.
- **ESPAGNOLS et portugais dérivés de L'Arabe**. Beirut : Librairie du Liban 1974.
- **ENCYCL. BRIT. =ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA**. 15 th Edition. 1983.
- **LAROUSSE, ENCYCLOPEDIQUE EN COULEURS*** Paris 1977.

وقد استفيد منه فيما يخص الأعلام الفرنجية.

- **Groeber (Gustav)** : Uebersicht Ueber die lateinische Litteratur von der mitte des vol. Jahrhunderts bis zur mitte des Xiv Jahrhunderts. munchen: Wilhelm Fink verlag 1902.

SCHORTER C.M.H. = Schorter Cambridge medieval history. 2 Vols. cambridge : The University press 1966.

أما ما يخص اللوحات فقد جمعتها من مصادر شتى أثناء إقامتي في فرنسا

* * *



البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمون



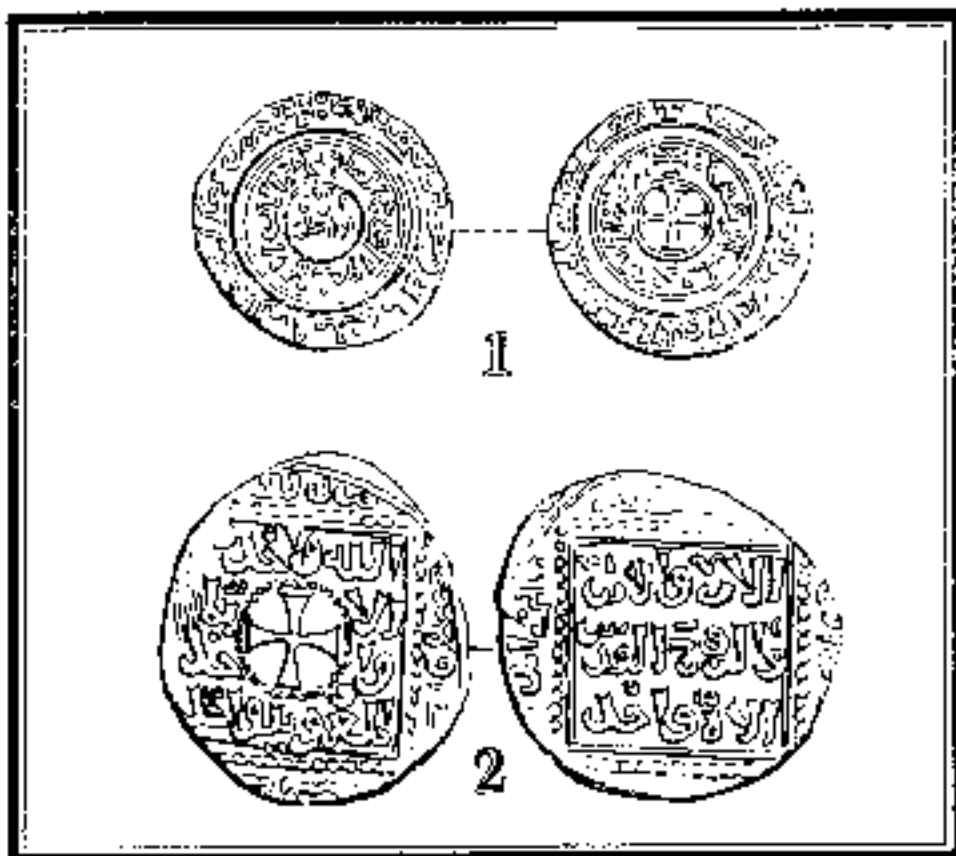
بطرس الناسك والبابا أوربان الثاني



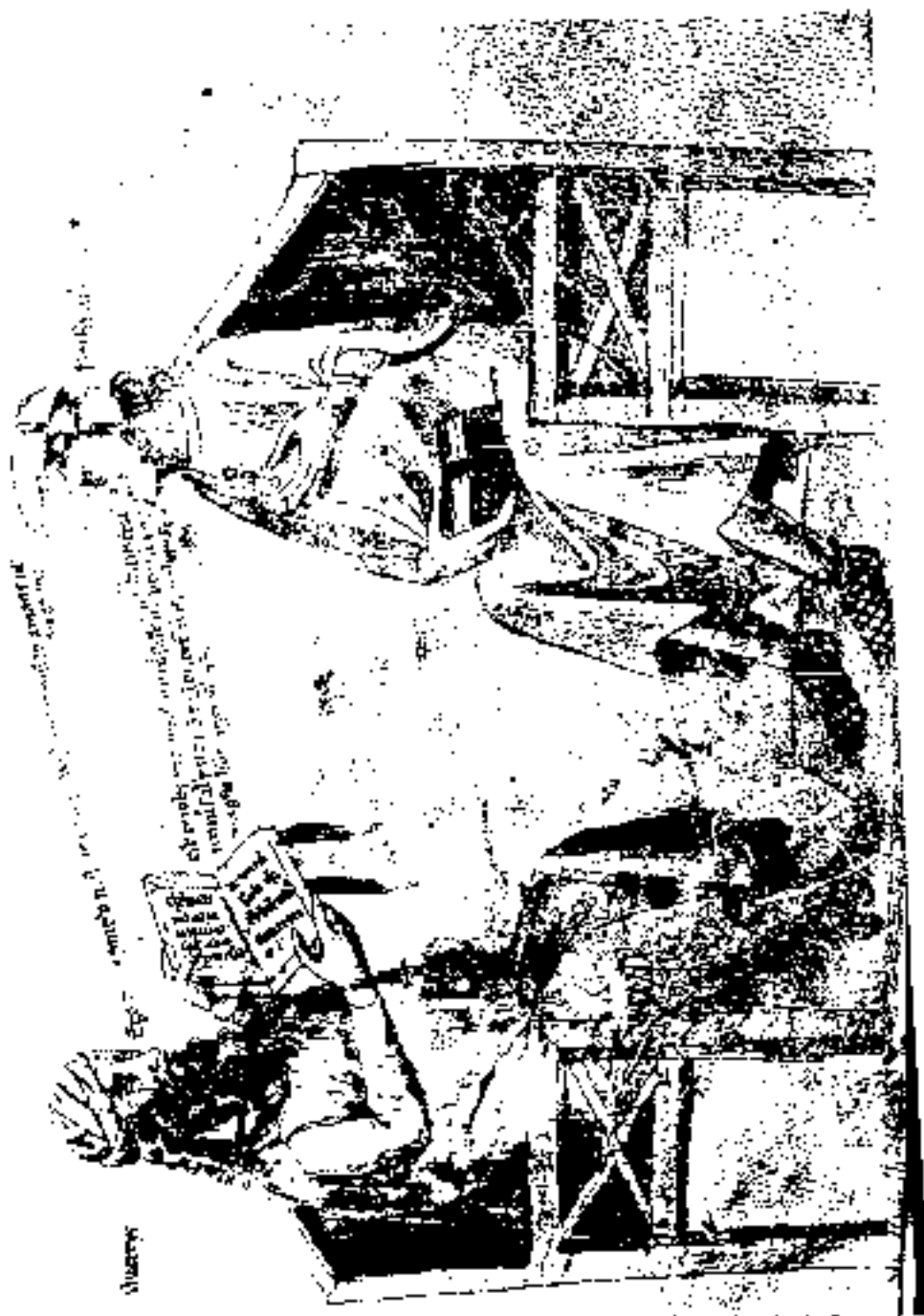
يعطرس يارثلمي يكتشف الحرية المقدم



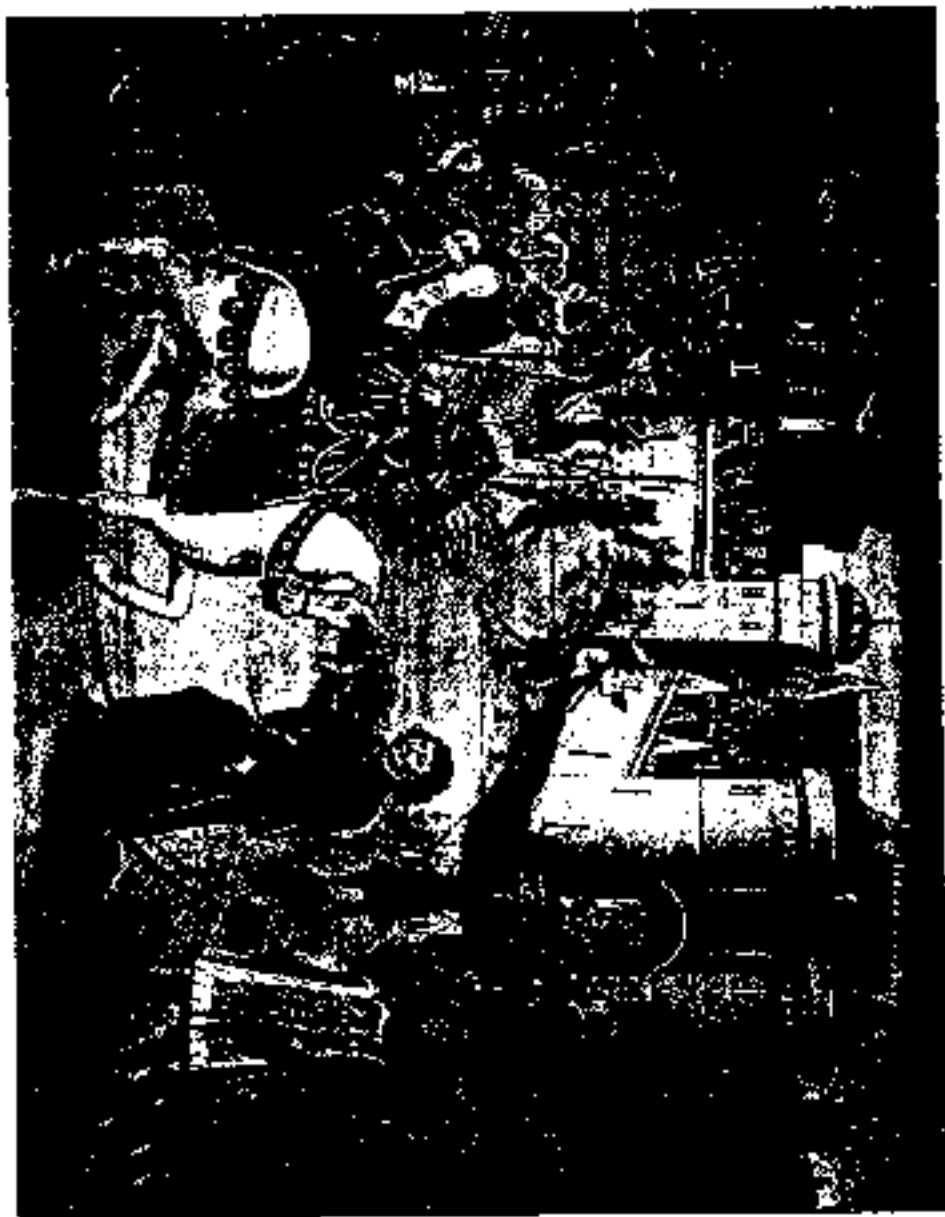
نانكرد، أمير أنطاكية بزي عربي



نقود صليبية بأحرف عربية



الجنرال العائلي بين النساء والرجال



صلاح الدين يتسلم مفاتيح القدس



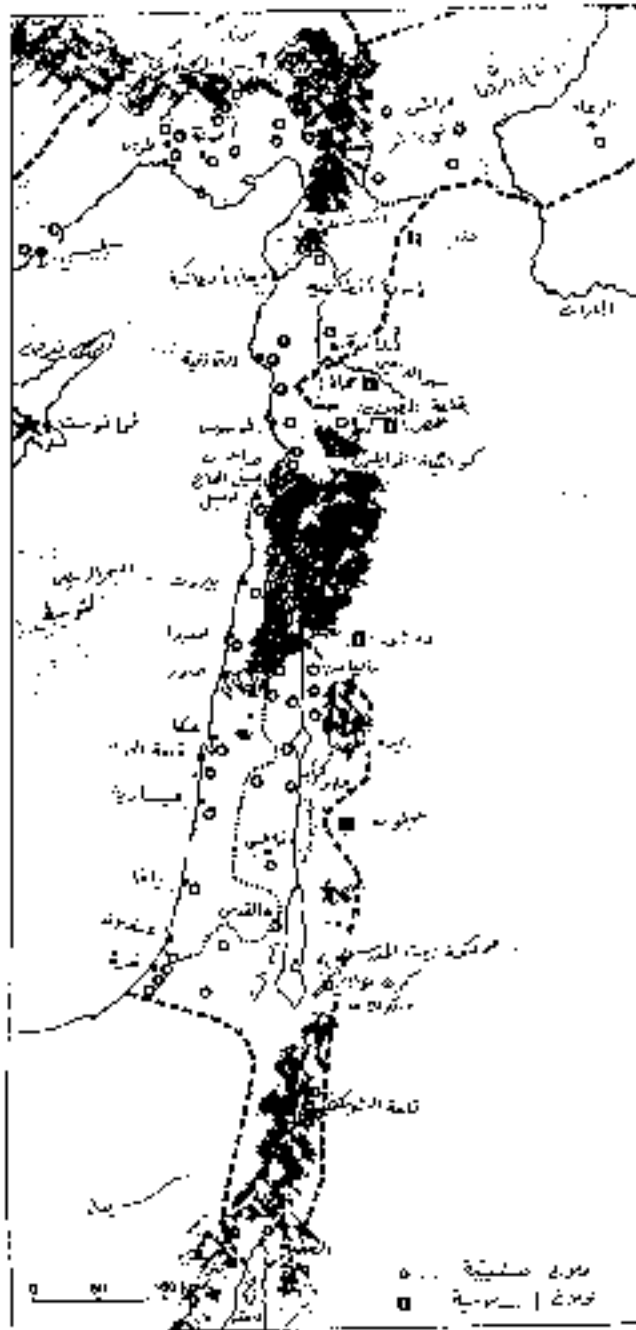
فرانسوا الاسبيري والكامل سلطان مصر



لويس التاسع مأسوراً في المنصورة



نوس التاسع يستقبل وفد الحشاشين



خارطة تمثل فترة الحروب الصليبية، التي يتحدث عنها الكتاب



فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
5	تقديم
9	المقدمة
19	الفصل الأول: الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي
47	الفصل الثاني: الأثر اللغوي والأدبي
95	الفصل الثالث: الأثر العلمي والطبي
135	الفصل الرابع: الأثر العقدي
171	المصادر
179	المراجع العربية
187	قائمة المراجع المترجمة
193	قائمة المراجع الأجنبية
206 - 197	صور مختلفة تمثل فترة الحروب الصليبية

207 خارطة تمثل فترة الحروب الصليبية التي يتحدث عنها الكتاب

208 فهرس الموضوعات

* * *

208

BIBLIOTHEQUE ALEXANDRINE
مكتبة الإسكندرية

المؤلف في سطور

- عبد الله بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة، ونسبه «الريعي»
- ولد في الجزيرة في «عينه» في مطنة «القصبة» عام ١٣٧٧/١٩٥٨م
- أنهى دراسته، المتوسطة والثانوية في المعهد العلمي بعينيه عام ١٣٩٦
- تخرج من كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الإمام، بالرياض
عام ١٤٠٠.
- عين معيداً في الكلية، ودرس فيها لسنة التمهيدية للمماجستير في التاريخ
الإسلامي. وحصل على تقدير «ممتاز».
- منح درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من الكلية ذاتها بتقدير «ممتاز»
وعين محاضراً.
- بحث إلى فرنسا في الفترة من ٢٦ مارس ١٩٨٥ إلى ٢ أكتوبر ١٩٨٩ حيث
عاد بالمؤقتة من جامعة السوربون (باريس الرابعة)، بتقدير «مشرف»
في مجال «تاريخ أوروبا المعصور الوسطى» في التاريخ وحضارة
«الصفين».
- هو الآن عضو هيئة التدريس في قسم التاريخ والحضارة، في الكلية عينه،
ويلقي محاضرات في تخصصه.
- له مساهمات في مؤتمرات داخلية وخارجية، ولديه «موسم»
ودراسات حول «أصنام قرنية فديقة» لم تنشر.
- له «موسمات» في جريدة «الجزيرة» السعودية.

Bibliothèque Al-Farabi



0374530